الأطفال في الشعر العباسي

أ.م.د. ثائر سمير حسن الشمري
جامعة بابل / كلية التربية الاساسية

تعددت موضوعات الشعر في العصر العباسي تعدداً يجعلنا نكاد نقطع بأنَّ شعراء هذا العصر لم يتركوا مضموناً حياتياً فيه إلّا وتحدثوا عنه ، وأسهبوا في تفصيله، وتوضيح أجزائه وتحليلها، سواء أكان سياسياً أم اجتماعياً أم ثقافياً أم غير ذلك من موضوعات الحياة اليومية بتفصيلاتها جميعاً، وذلك لا يدلّ إلّا على عمق ثقافة الشاعر العباسي التي حصل عليها بسبب ما ناله العصر من المستويات الثقافية المتعددة، ولاسيما الترجمة وماصدر عنها من الفلسفة والمنطق، تلك الفلسفة التي جعلت عقل الشاعر العباسي قادراً على التحليل والتأويل، فضلاً عن تناول تفصيلات الحياة المتنوعة في شعره .

وكان الأطفال أحد أهم تلك المضامين الحياتية التي تحدث عنها الشعراء العباسيون في قصائدهم، ولاسيما حين كانوا يرثونهم عند وفاتهم، غير أنّ رثاء الأطفال كان معروفاً منذ العصر الجاهلي، ولم يقتصر على شعراء العصر العباسي كما هو معلوم لدى الجميع . ولكن الرثاء لم يكن الموضوع الوحيد في تناول الأطفال، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، لم ينصب اهتمام بحثنا على تلك الثيمة فحسب، بل يتعدّى الى ذكر الأطفال في الشعر العباسي الى أمور لم تكن مألوفة قبل العصر، وذلك ما سيتوضح من خلال الدراسة هذه ، لذا سنتحدث أولاً عن رثاء الشعراء العباسيين لأولادهم حين كانوا يموتون أمام أعينهم، لأنّ هذا المضمون هو الابرز من بين المضامين الأُخر التي سنتحدّث عنها لاحقاً .

وربما يجدر بنا قبل تفصيل الحديث عن مضامين ذلك الرثاء، أنْ نشير الى قضية مهمة ومعروفة في الآن نفسه، وأعني بها اشتراك الشعراء العباسيين- الذين رثوا أبناءهم – جميعاً بصفة الحزن، فقصائدهم الرثائية كانت تطفح به [١] ، فغدا الحزن طابعاً مشتركاً بينهم، ورابطاً وثيقاً يربط تلك القصائد فيجعلها متشابهة من الناحية هذه ، كون رثاء الأبناء قضية انسانية لاتختلف المشاعر فيها كثيراً.

ولايختلف اثنان في حدّة الحزن وشدّته لدى الشاعر الذي يموت ابنه أمام عينيه، فـ ((موت الولد صدع في الكبد لاينجبر آخر الأمد)) [٢] ، كما يقول ابن عبد ربه، ولعلّ أوّل دليل يبدو لنا على حزن أولئك الشعراء الشديد لموت أبنائهم هو اكثارهم من ذكر اسم الطفل المتوفي أو كنيته، وذلك إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ الصدمة كانت شديدة على اولئك الآباء

الشعراء، فموت أبنائهم لم يكن متوقعاً، كونهم مازالوا أطفالاً، لذا فهم بعيدون عن سطوة الموت وسلطته حسب رؤية آبائهم، ولكنْ للموت رأي مختلف في هذا .

وربما يكون الإكثار من ذكر أسماء الأطفال الذين ماتوا من لدن آبائهم في قصائدهم الرثائية دليلاً على أنّ اطفالهم ما زالوا ماثلين أمام أعينهم، وأنهم لم يموتوا حتى ولو كان ذلك من وحي أوهامهم وخيالاتهم، فأثر الصدمة كان شديداً عليهم من دون شك .

فبشار بن برد يرى أنه أصبح غريباً بعد موت ابنه (محمد) ، وفي الوقت نفسه يعتقد أنّه – إذا ما مات بعد ابنه – لاغرابة في الأمر ، فذكر الاسم هنا كان لبيان معاناة الأب بعد موت الابن :

كأنّي غريبٌ بعدَ موتِ (مُحَمّدٍ) وما الموتُ فينا بعدَهُ بغريبِ (٣)

كما يأتي ذكر المرثي من لدن بشار حين يقسم على أنّه حاول دفع الموت عن ابنه من دون جدوى، فالموت لا يُعالجُ بوصفة طبية، فيقول :

لَعَمري لقد دافَعْتُ مَوتَ (مُحَمَّدٍ) لَوَ انَّ المنايا تَرعَوِي لطبيبِ (٤)

وفي بعض الأحيان يتملّك الحزن الشديد والد الطفل المتوفي، فيأتي اسم الطفل في شعر أبيه للتعبير عن ذلك الحزن من خلال عقد الموازنة بين الاسم والفعل اللذين يتشابهان لفظاً، ويفترقان جوهراً ، فيدّعي أحد الشعراء أنّه لم يسمِّ ابنه (يحيى) إلّا لكي يحيا ولا يموت، غير أنّ ذلك كان أمراً بعيد المنال، إذ لم يتحقق حلم الشاعر، على الرغم من أنّ الأخير تأمّل خيراً كثيراً في ابنه، ولكن أخطأ ظنّه فيه، وخاب أمله في اعتقاده :

وسَمَّيتُهُ يحيى ليحيا، ولم يكُنْ الى رَدِّ أمْرِ اللهِ فيه سَبيلُ
تَيَمَّمْتُ فيهِ الفألَ حين رُزقْتُهُ ولم أدْرِ أنَّ الفألَ فيه يَفيلُ (٥)

وعُرِفَ ابن الرومي برثائياته لابنه الأوسط (محمد) ، والتي كانت أشبه بنغم ناي حزين، يعكس ما بأحشاء العازف من الألم، وينقله الى خارج محيطه ليعبّر عن ذلك الألم، ولا سيما حين كان الشاعر يذكر اسم ابنه في بعض رثائه له، ليُسْمِعَهُ شكواه من فقده له ، وليُصَوِّرَ له النار التي يحترق بها قلبه كلما ذكر اسمه، قائلاً :

مُحمَّدٌ : ماشيءٌ تُوُهِّمَ سَلْوةً لقلبيَ إلاَّ زادَ قلبي من الوَجْدِ (٦)

ولاشكّ في أنّ المصيبة كبيرة على الأب حين يفقد أحد ابنائه، فيبدو ذهنه مشوّشاً وغير ذي تركيز ؛ بسبب هول الكارثة التي حلّت به، وشدّة وطأتها على نفسه، حتّى يظنّ أنّ الليل طال عليه؛ لانه يعيش لحظات صعبة، ولاسيما في أول الأمر ، وأصدق مثال على ذلك الشاعر التهامي الذي نادى ابنه المرثي بكنيته ليسأله عمّا جرى له بعد فقده ، إذ يقول :

أبا الفضلِ طالَ اللّيلُ أم خانني صبري فخيّلَ لي أنّ الكواكبَ لا تسري (٧)

إنّ نار الحزن المشتعلة بسبب موت الطفل لا تنطفئ مهما تقدم الزمن، بل تبقى مختبئة تحت الرماد، منتظرة وقت العودة الى الظهور مجدداً كلّما تذكّر الأب اسم ابنه المفقود، أو حين يذكر كنيته في رثائه له، كما هو الشأن مع اسامة بن منقذ الذي أكّدَ عظمة مصيبته بفقد ابنه، مُعرباً عن ذلك بقوله :

لَعَمْرُكَ ما يُنسِينيَ الدهرُ رَوْعَتي بِفَقدِ أبي بكرٍ حياتي، ولا يُسْلِي (٨)

وربما يكون في ذكر اسم المرثي أو كنيته من لدن الأب الشاعر في قصيدته دليل على عدم نسيانه، فهو لن يغيب عن ذاكرة الأب مطلقاً، وهذا مادفع الشعراء فعلاً الى الكلام على عدم نسيان أطفالهم الذين اختطفهم القدر منهم، وذلك من خلال المراثي التي دبّجوها فيهم، فيكاد كلّ شيء في الوجود يذكّرهم بهم، مثل نوح الحمام، وصياح النساء ثيباً وأبكاراً :

يُذَكِّرُني نَوحُ الحَمامِ فِراقَهُ وإرنانُ أبكارِ النِّساءِ وثِيبِ (٩)

ولا يجد بعض الشعراء في أخوة المرثي عوضاً عنه، بل بسبب رؤيته لهم يتذكّره دوماً؛ لعدم وجوده بينهم، وبذلك تزداد مأساته ألماً ، ومعاناته حسرة، كابن الرومي الذي وإنْ اعترف بسعادته بوجود وَلَديه الآخرين في الحياة، كان يتذكّر ابنه الذي توفي، معلناً عن عدم نسيانه أبداً كما يقول :

وإنِّي وإنْ مُتِّعْتُ بابنيَّ بعده لذاكرُهُ ما حَنَّتِ النِّيبُ في نَجْدِ (١٠)

تلك الذكرى التي تجعله يتذكر كُلَّ لحظة فرح قضاها معه قبل موته مبكِّراً ، تاركاً خلفه الألم لوالده الذي يُعزّي نفسه بتلك اللحظات التي نظر فيها لابنه، أو قبّلَهُ ، أو ضمَّهُ الى صدره، أو شَمَّهُ وهو في مهده :

كأنّيَ ما استَمْتَعْتُ منكَ بنظرةٍ ولا قُبلةٍ أحلى مَذاقاً مِنَ الشَّهْدِ
كأنّيَ ما استمتعتُ منكَ بضَمَّةٍ ولا شَمَّةٍ في ملعبٍ لَكَ أو مَهْدِ (١١)

ثُمَّ يؤكد ابن الرومي أنّ رؤيته لوَلَديه الآخَرَين وهما يلعبان أمامه، تغدو بمثابة النار التي تحرق قلبه من غير قصد منهما، وبذلك تتفتَّح أحزانه من جديد وإنْ لم تختفِ عنه سابقاً ، ففي ذلك يقول :

أرى أخَوَيكَ البَاقِيَيْنِ فإنّما يَكُونان للأحزانِ أورى مِنَ الزَّنْدِ
إذا لَعِبا في ملْعَبٍ لَكَ لَذَّعا فؤادي بمثل النار في غير ما قَصْدِ
وما فيهما لي سَلْوةٌ بل حَزَازَةٌ يَهيجانِها دُونِي وأشقى بها وَحْدِي(١٢)

أمّا التهامي ، فانه يصرّح لولده المرثي عن انشغاله به فقط في الأوقات كلّها، فذكره لن يَغيبَ عن لسانه أبداً، بل إنّ اسمه لا يفارقه، فهو أول ما ينطقه من كلام، وحتى عندما لايرد اسمه في كلامه، نراه حاضراً في سكوته وإضماره كما يقول:

فـإذا نطقـتُ فأنـتَ أوَّلُ منطقـي وإذا سَكَتُّ فأنتَ في إضماري (١٣)

وليس لسان الشاعر الذاكر الوحيد للولد المتوفي لدى التهامي، فالنوم لدى الأخير يتنغّص بطيف خيال ذلك الابن، ليس ذلك فحسب، فخياله يزور الشاعر الأب حتى في يقظته، ممّا يدلّ على أنّ ذكراه باقية لدى أبيه، ولا يمكن أن تمحوها أيّة مزايا حياتية أخرى، حتى ولو كانت في أبناء الشاعر الآخرين، وهذا ما يصرّح الشاعر به فعلاً حين يرى أنّ الجمر لا يُطفِئ الجمر، وإنما يزيده اشتعالاً، كما أنّ الجرح لا يُداوى بجرح ثانٍ، بل يعزّز ألمه ، وذلك في دلالة على شدّة ألم الشاعر بفقد ابنه، واستحالة نسيانه بمرور الوقت :

يُـنَغِّصُ نـومي كُـلَّ يـومٍ وَيَقظتـي خيـالٌ لـهُ يـسري وذكـرٌ لـهُ يجـري
ويُوسـعُ صـدري بالحـديث ادِّكـاره على أنّ ذاكَ الوسع أضيقُ للصدرِ
وقـالوا سيـسليه التأسّـي بغيـره فقلتُ لهم هل يُطفأ الجمرُ بالجمرِ
أينـدملُ الجـرحُ الرغيـبُ بمثلـه أَلاَ لا ولكن يستطير ويستشري (١٤)

وحين يمحو الموت الصورة الحقيقية للطفل الميت من عَينَي والده، نجد أنّه لايتمكّن من محو خياله كذلك من قلب الأب، أو محو ذكره من فكره، لذا فإنّ ذكراه تبقى ماثلة الى انتهاء حياة الأب ، فضلاً عن أنه لن ينسى أيَّ شيء يتعلق به :

مَحاكَ الرَّدى من رأي عيني وما محا خيالك من قلبي وذكرك من فكري
فما أنسَ من شيء وإنْ جلَّ قدرُه فإنّك مني ما حييت على ذكْرِ (١٥)

إن تذكّر الشاعر أسامة بن منقذ لطفله المرثي يبدو مختلفاً عن تذكّر الشعراء الآخرين لأطفالهم ، فهو يعدّه سواد ناظره الذي ذهب بذهابه عنه، وعلى الرغم من ذلك فان صدره لم يخلُ من الحزن والوجد على فقده، فيقول :

خَـلا نـاظِري منـه، وكـان سـوادَهُ ولـم يَخْـلُ مـن حزنـي ووجـدي بـه صدري(١٦)

لذا فمن المستحيل نسيان ذلك الطفل، فحيثما اتّجه الشاعر يبقى طفله أمام ناظره لا يزول ؛ لأنه في أسوَدَي عينه وقلبه حسب قوله :

كيـفَ أنـساكَ يـا أبـا بكـرٍ، أم كيـ ـفَ اصطباري؟ ماعنكَ صَبري جَميلُ
أنتَ، حيثُ اتّجهتُ ، في أسوَدَي عيـ ـنِي وقلبـي ، ممثَّلٌ، لا تَزولُ (١٧)

كما يحنُّ والد الطفل المرثي الى رؤيته دوماً، بوصف ذلك الحنين أحد العلامات البارزة للتذكّر وعدم النسيان، ولاسيما حين يكون الشاعر مقتنعاً بأنه ما من سبيل لرؤيته بعد موته :

أحِـنُّ الـى أبـي بكـرٍ، ومـالِي — الـى رُؤيـاهُ فـي الـدنيا سـبيلُ [١٨]

ومن المؤكد أنّ صغر سنّ الطفل الميت، كان السبب المباشر لشدة حزن الأب، ممّا جعله يذرف الدموع الغزار حزناً عليه، فضلاً عن الحديث المباشر في القصائد الرثائية عن موته صغيراً .

وكان الشعراء العباسيون – في كثير من الاحيان – يلجؤون – للتعبير عن موت أبنائهم وهم في سنٍّ قصير – الى مظاهر الطبيعة التي تتسم بقصر عمرها؛ لأنها تكون أكثر ايحاءً ودلالة على حداثة أعمار أطفالهم الذين اختطفهم الموت، وأصدق مثال على زعمنا ما فعله بشار بن برد حينما رثى ابنه محمداً ، إذ شبّهه بالريحان المعروف بموت صفاته الحسنة – كالطعم واللون – في وقت قصير جداً، وذلك حين قال :

وكـان كَرَيحـانِ العَـرُوسِ بَقَـاؤُهُ — ذَوَى بعدَ إشراقِ الغُصُونِ وطِيبِ [١٩]

ويخبرنا ابن الرومي عن حداثة سنّ طفله وقت موته بطريقة مختلفة عن طَرِيقة بشار السابقة، فهو يلجأ – للتعبير عن ذلك – الى المدة التي عاشها ابنه بين مهده ووضعه في مثواه الأخير (اللحد) ، وهي مدة قصيرة لاشكَّ في ذلك؛ لأنه يصفها – في قصيدته – بالقلّة ، لذا فان طفله لم ينسَ عهد المهد الذي أُخِذَ منه مُجْبَرَاً ، وضُمَّ في اللّحد ، فيقول :

لقد قَلَّ بـين المَهْـدِ واللَّحْـدِ لُبْثُـهُ — فلم يَنْسَ عَهْدَ المهدِ إذْ ضُمَّ في اللَّحْدِ
تَـنَغَّصَ قبـل الـرِّيِّ مـاءُ حياتِـهِ — وفُجِّـعَ منـه بالعُذُوبـة والبَـرْدِ [٢٠]

ويجعل التهامي طفله المتوفى كوكباً قصير العمر، فهو لديه من كواكب الأسحار التي تختفي سريعاً، يقول:

ويـا كوكبـاً مـا كـان أقصرَ عمرهُ — وكـذا تكـون كواكـبُ الأسـحارِ [٢١]

وينعته مرّة أخرى بالهلال الذي لم يُتْرَك ليُصْبحَ بدراً، ولم يُعْطَ المهلة الكافية ليُكمِلَ شهره، ثم يختفي في آخر ليلة فيه، وإنما عجل الخسوف عليه، وأخفى نوره قبل الأوان :

وهـلالَ أيـامٍ مـضى لـم يـستدرْ — بَـدراً ولـم يُمْهَـلْ لوقـت سـرارِ
عجـل الخـسوفُ عليـه قبـلَ أوانِـهِ — فمحـاهُ قبـل مَظِنَّـةِ الإبـدارِ [٢٢]

ومن الملاحظ أنّ الشعراء الذين رثوا أطفالهم الصغار كانوا دوماً يفيدون من الهلال في التعبير عن صغر سنِّ أولادهم، وذلك لأن أيام الهلال معدودة لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة في تعدادها، لذا يبدو أنه كان الأكثر ايحاء لديهم من بين مظاهر الطبيعة المتنوعة للتعبير عن شدة ألمهم بموت اولادهم حديثي الأعمار، فالتهامي نفسه كان يُكثِرُ من الاستعانة به في رثائه لطفله، ومن ذلك مثلاً أنه كان يرجو اكتمال الهلال (طفله) ليُصْبِحَ بدراً، ولكن لا سبيل الى

تحقيق ذلك الحلم، فضلاً عن وصفه لطفله بالشبل الذي تمنى أن يكون أسداً ، إلّا أنّه مات قبل أن يجرح بناب أو ظفر كما يقول والده :

رزئتُ بملء العينِ يُحسَبُ كوكباً ... تولّد بين الشمس والقمر والبدرِ
بأبلج لو يخفى لنمَّ ضياؤُهُ ... عليه كما نَمَّ النسيمُ على الزهرِ
بنفسي هلال كنتُ أرجو تمامه ... فعاجلهُ المقدارُ في غُرّة الشهرِ
وشبل رجونا أنْ يكون غضنفراً ... فماتَ ولم يجرح بنابٍ ولا ظفرِ (٢٣)

وحين يشتد الحزن على الأب الشاعر بسبب موت طفله الصغير، نراه يتساءل مستنكراً – وهو في حال ذهول كبير من هول الأمر عليه – عن أمور عدّة ، قاصداً من خلالها التعبير عن رفضه فكرة موت ابنه الصغير الذي طواه الردى مثل طيّ الرداء، ولم يترك من مغانيه سوى الذكريات، كما يقول :

أحينَ نَضا ثوبَ الطفولة ناسلاً ... كما ينسُلُ الريش اللؤام عن النسرِ
وخلّى رضاع الثدي مستبدلاً به ... أفاويق من درّ البلاغة والشعرِ
وألقى تميمات الصبى [كذا] وتباشرتْ ... حمائلُ أغماد المهنّدةِ البُترِ
وبانَ عليه الفضلُ قبل اتِّغارِهِ ... ويبدو وإنْ يثَّغِر كرمُ المُهرِ
وقامت عليه للعلاءِ شواهدٌ ... كما استشهد العضبُ السريجيُّ بالأثرِ
وخبرنا عن طيبه ماءُ وجهِهِ ... كتخبير ماء الظلم عن طيبةِ الثَّغْرِ
وجادتْ به الأيّامُ وهي بخيلةٌ ... وقد ينبعُ الماءُ الزلالُ من الصَّخْرِ
طواهُ الردّى طيّ الرّداء فأصبحتْ ... مغانيه ما فيهنّ منه سوى الذكرِ (٢٤)

ولم يختلف أسامة بن منقذ في التعبير عن صغر سنّ طفله المرثي عن الشعراء العباسيين الذين سبقوه، إذ وصفه بالهلال الذي سرعان ماغرب قبل اكتماله بدراً، وهو يقول ذلك بمنتهى الحزن والحسرة :

لَهْفَ نَفسي لِهلالٍ طالعٍ ... ما استَوى في أُفْقِهِ حتّى غَرَب (٢٥)

ولم يلجأ الشاعر للهلال – كما ذكرنا سابقاً – إلّا للمبالغة في قصر عمر طفله، فالهلال سرعان ما ينمو وتتغير صفته ، وكذلك الطفل المرثي، فانه حين يموت صغيراً يُفجَعُ به أبوه الشاعر، ولاسيما اذا كان في السابعة من عمره، في الوقت الذي كان يتمنى فيه الأب أن يطول عمره الى أبعد من ذلك بكثير :

رُزِئتُ أبا بكرٍ ، على شَغَفي به ... فيا لَهفتا ، ماذا جَنى الحادثُ البِكْرُ
لِسبعٍ مَضَتْ من عُمرِه، غالَهُ الرَّدَى ... وكنتُ أُرجِّي أنْ يطولَ به العُمْرُ (٢٦)

ومن البديهي أنْ يكثُرَ في مثل هذا الشعر البكاء وذرف الدموع، فأكثر الشعراء الذين رثوا أطفالهم تطرّقوا في قصائدهم الى ذكر البكاء على مفقوديهم ، وذرفهم الدموع الغزار، ومن ذلك قول بشار الذي يؤكد فيه أنّ له عبرة في كلّ يوم حزناً على طفله، ولكنه لايذرفها صبراً، وربما طمعاً في مغفرة ذنوبه الكثيرة :

ولـي كـلّ يـومٍ عَبْـرةٌ لا أفِيـضُها ... لِأحظـى بـصبرٍ أو بحَـطٍّ ذُنُـوبِ (٢٧)

إلّا أنّ ابن الرومي خالف بشاراً في رأيه السابق؛ وذلك لأنه طلب من عينيه أن تجودا له بالدموع، لأنـه جاد بابنـه للثرى، وهو أعزّ وأطيب ممّا تمنعه عنـه عيناه، وهو لا يكتفي بتلك المحاججة، بل يصرّ على العودة الى حزنه الشديد فيما لو منعت عنه عيناه الدموع وبخلت بها، فالدموع تطفئ نار حزنه، وتخفف عليه احتراق قلبه لفقد ابنه الصغير :

حمـاهُ الكـرى هـمٌّ سـرى فتأوّبـا ... فبـات يُراعِـي الـنجمَ حتّـى تـصوَّبا
أعينـيَّ جُودا لـي فقد جدتُ للثّرى ... بـــأكثرَ ممّـــا تَمنعـــان وأطيبـــا
بُنَـيَّ الـذي أهديتـه أمـسِ للثـرى ... فللـــهِ مـــا أقـــوى قنـــاتي وأصـــلبا
فإنْ تمنعاني الدمعَ أرجعْ الى أسىً ... إذا فَتَـرت عنـه الـدموعُ تَلَهَّبـا (٢٨)

ويصرّ الشاعر على ذرف دموعه حزناً على ولده، فلا يبخل بها أبداً؛ لأنه (الطفل) أنفس منها، لذا نرى الشاعر يحاور عينيه طالباً منهما أنْ تُسعداه فيما يريده منهما لتحصلا على حمده وشكره، وإلّا فستتعرضان الى لومه إنْ قصّرتا بدموعهما عليه، وحجبتاها عنه، وبعد ذلك كلّه نجده مخاطباً ابنه المتوفى بأنّه قرّة عينه، وأنّه أطال بكاء تلك العين بموته حتّى تركها أقذى من الأعين التي أصابها الرمد بحسب قوله:

أريحانَـةَ العَينـينِ والأنـفِ والحـشا ... أَلَا ليت شِعْري هل تغيَّرتَ عن عَهدي
سأسقيكَ ماءَ العَينِ ما اسعَدَتْ بـه ... وإنْ كانت السُّقْيا مِنَ الدَّمعِ لا تُجْدِي
أعَينـيَّ: جُودا لـي فقد جدتُ للثّرى ... بـأنْفَسَ ممّـا تُـسألانِ مِـنَ الرِّفـدِ
أعينَـيَّ : إنْ لا تُـسعِداني أُلُمْكُمـا ... وأنْ تُسْعداني اليومَ تَسْتَوجِبا حَمْدي
عَـذَرْتُكُما لـو تُـشْغَلانِ عـنِ البُكـا ... بنومٍ، وما نوم الشَّجِيِّ أخـي الجَهْدِ؟!
أقُـرَّةَ عَيْنِـي : قـد أطَلْـتَ بُكاءَهـا ... وغادَرْتَها أقْذَى مِنَ الأعيُنِ الرُّمدِ (٢٩)

وكان التهامي يعتذر لابنه على كثرة بكائه، ثم يدعو له بالتوفيق ؛ لأنه – على حدِّ رأي أبيه – ترك ألأم دارٍ، قاصداً تركه الدنيا بموته، فيقول:

أبكيـــه ثُـــمَّ أقـــولُ معتـــذراً لَـــهُ ... وُفِّقْـــتَ حـــين تركـــتَ ألأم دارِ (٣٠)

ولهذا السبب نراه يخفض زفراته كلّما همَّتْ بالصعود ، وفي الوقت نفسه يكفكف عبراته حينما تتسارع في جريانها حزناً على طفله :

وأُخفِّـضُ الزفـراتِ وهـي صـواعد وأُكفكـفُ العَبَـراتِ وهـي جَـوارِ [٣١]

ولعلّ أشدّ أنواع الرثاء وأصعبها على الشاعر هو رثاء الأطفال، وذلك ما انتبه له القيرواني منذ القِدم ، إذ قال : ((ومن أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر أنْ يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات))[٣٢] ، وبما أنَّ الطفل لم يحقق بعد مجداً يمكن أنْ يرقى به [٣٣] ، فيُسهِّل الأمر على الراثي، تحوّل الشعراء العباسيون الى بكاء (الأماني الضائعة) كما يسمِّيها أحد الباحثين [٣٤]، وذلك إنْ دَلَّ على شيء فإنّما يدلّ على ذكائهم وحسن تصرّفهم في مثل هذه المواقف الصعبة، ومقدرتهم على التكيّف في الظروف المختلفة، لذا نراهم يُخصّصون حيِّزاً مناسباً في رثاء أطفالهم لبكاء الأماني التي كانوا يتوقّعونها لأبنائهم الصغار ، والتي سرعان ما تلاشت بموتهم وذهابهم عن الدنيا، فبشار بن برد كان يرجو أنْ يكون طفله فارساً يصارع الفرسان في الحرب ، وخطيباً يدافع عن قومه أمام أعدائهم، غير أنّ الموت كان حاجزاً قوياً حال دون تحقيق تلك الأُمنية :

رُزِئْـتُ بُنَيِّـي حـينَ أورَقَ عُـودُهُ وأَلْقَـى عَلَـيَّ الهَـمَّ كـلُّ قَريـبِ
وقد كنتُ أرجو أنْ يكُونَ (مُحَمَّدٌ) لنـا كافيـاً مـن فـارسٍ وخَطيـبِ [٣٥]

وفي مثل هذه الحالات نرى أنّ الآمال تخلف وعدها، في الوقت الذي تُنجِزُ فيه المنايا وعيدها، فابن الرومي توقّع الخير من لمحات طفله، فآنسَ الرشد من أفعاله، ولكن الموت لم يمنحه الوقت الكافي ليتحقق ما توقعه منه:

على حين شُمْتُ الخيرَ من لَمَحاتِهِ وآنَـستُ مـن أفعالـه آيـةَ الرُّشْـدِ
طـواهُ الـرّدى عنِّـي فأضـحى مَـزَارُهُ بعيـداً علـى قُـرْبٍ قريبـاً علـى بُعْـدِ
لقـد أنْجَـزَتْ فيـه المنايـا وعِيـدَها وأخلَفَـتِ الآمـالُ ماكـان مـن وَعْـدِ[٣٦]

وقد يتمنى بعض الشعراء أن يكون أطفالهم مقاتلين أشداء، يخوضون الحرب ضد أعدائهم، فينتصرون عليهم، او يموتون بشجاعة، إلّا أنّهم صُدِموا بموتهم مبكراً، ممّا ضاعف هول الكارثة عليهم، كما حصل مع التهامي الذي تمنى هذه الأُمنية لطفله قبل موته :

وضـاعفَ وَجْـدي أنْ قضيت ولـم تَقُمْ مقـامَ الشجا المعروض في ثغرة الثغرِ
ولـم تلـقَ صـفًّا مـن عـداك بمثلـهِ كمـا أسـند الكتّـابُ سـطراً الـى سَـطْرِ
وما خُضْتَ جيشاً بالدماء مضمّخاً يُرى بيضهم مثل الحَباب على الخمرِ
ولـم تختـصمْ حَوليـك ألـسنةُ القنـا فتحكم في الهيجاء بالعُرفِ والنكرِ [٣٧]

فطفل التهامي مات صغيراً، فلم يتحقق ماكان يصبو إليه أبوه ، ولا ماكان يرجو منه الآخرون، ومن ثم لم يحقق ذلك الطفل الأماني التي توقعها منه الجميع، بسبب موته المفاجئ، فضاعت الأماني ، وضاع معها الفرح الذي شعر به أبوه لمدة وجيزة من الزمن :

مَــضَى حــينَ ودَّعَ دَرَّ الرّضــاع لــــدرّ التفـــصّح فــــي المنطـــقِ
وهـــــزّ اليــــراع أنابيبــــــهُ وهنــــــئ بالكاتـــــب المفلــــقِ
وقيــلَ : سيــشرُفُ هــذا الغــلامُ وقالــــت مخايلــــه أخلــــقِ (٣٨)

وكثيراً ما كان الشعراء العباسيون يتطرّقون – في مراثيهم لأطفالهم – الى إبداء تعجبهم من بعض الأمور التي رافقت موت ابنائهم، ومن ذلك التعجب من اسراع الموت لهم على الرغم من حداثة أعمارهم:

عَجِبْــتُ لأسْــراعِ المنيَــةِ نَحــوَهُ ومــا كــان لــو مُلِّيتُــهُ بِعَجِيــبِ (٣٩)

والأعجب من ذلك أنّ بعضهم صوّر الموت بصورة الانسان الذي يعلم ما يفعله بدقة، فلا يقتل أيَّ طفلٍ من دون تعيين وقصد، وإنّما يختار الأوسط منهم، وكأنه يعلم معزّته لدى والده، وحبه الكبير له، فيقوم بقتله متعمداً :

تَوَخّى حِمامُ الموتِ أوسَطَ صِبْيَتِي فللـهِ كيفَ اختار واسطةَ العِقْدِ (٤٠)

ثم يتعجب الشاعر من قلبه، ويتساءل عن عدم انفطاره بموت ابنه الأوسط، عادّاً إيّاه أشدّ قسوة وقوة من الحجر الصلد، وذلك في قوله:

عجبتُ لقلبـي كيفَ لـم ينفطِرْ لـهُ ولَو أنّهُ أقسى مِنَ الحَجَرِ الصَّلْدِ (٤١)

وبكاء الأب على ابنه المتوفى أمرٌ مألوف لا يدعو الى العجب، ولكن على النقيض من ذلك بكاء الميت على الحيّ ، إلّا أنّ ذلك يعكس لنا الحزن الشديد الذي يعاني منه الشاعر بعد موت ابنه، الذي أدّى به الى سوء الحال، بسبب الهموم الكثيرة التي نالته بعد تلك الفاجعة ، والتي جعلته يعتقد أنّ ابنه الميت لو علم بذلك لبكى من تحت التراب وذلك– حتماً – ممّا يثير العجب والاستغراب :

لـو رأى مــا حَـلَّ بــي مِـن بَعـدِهِ مِــــن هُمــــومٍ غَــــشِيتْني وكُــــرَبْ
لَبَكــى لــي تحــتَ أطبــاقِ الثَّــرى وبكـــاءُ الميْــتِ للحَــيِّ عَجَــبْ (٤٢)

وممّا يزيد الأب مرارة زيارته لقبر ابنه في لحظة اشتياق كبير له، فيصطدم بما يحجبه عن رؤيته من التراب والأحجار التي رزح تحتها، مما يؤدّي بالشاعر الى العودة خائباً من تحقيق ما سعى إليه، وعيناه تفيضان بالدموع التي يجعلها الشاعر خارجة من كبده، وهنا تأتي لحظة التعجّب، وذلك حين يطلب منا هذا الوالد أنْ نعجب للماء الذي يفيض من النار، إذ يقول:

أزورُ قَبــرَكَ مــشتاقاً ، فيحجُبُنِــي مــا هِيـلَ فوقَـك مـن تُـربٍ وأحجـارِ
فأنثَنِي، ودُمُوعِي مِنْ جَوَى كَبِدِي تفِيضُ، فاعجب لماءٍ فاضَ من نـارِ (٤٣)

ولعلّ هذين البيتين أصدق ما قيل من شعر في رثاء الأطفال، لما يصور فيهما الشاعر من الألم المحض الذي يشتعل به قلب الأب الفاقد، والذي تمثّل في الفاظهما التي احتوت على كلّ ما يثير الحزن في سمع المتلقي، فتجعل الدموع تنهمر من دون شعور بها .

وكنتيجة حتمية لذلك الحزن الكبير الذي شعر به الشعراء بفقد أطفالهم، نراهم يتمنّون لو كانوا فداءً لهم، أو الموت قبلهم، فلا يتعرضون لذلك الألم الذي عانوه كثيراً، ومن أولئك الشعراء ابن الرومي الذي ودَّ الموت قبل طفله، ولكن هذه هي مشيئة الله (سبحانه وتعالى) ، فلا يستطيع الانسان منعها مهما حاول، يقول:

بودِّي أنّي كنتُ قُدِّمتُ قبلَهُ وأنّ المنايا دُونَهُ صَمَدَتْ صَمْدِي
ولكنَّ ربِّي شاء غَيرَ مشيئتي وللرَّبِّ إمضاءُ المشيئةِ لا العَبْدِ (٤٤)

ولعلّ من نافلة القول الاشارة الى ((**أنّ أمنيات الشعراء ليست في مقدورهم لأنها مستحيلة وهم أنفسهم مقتنعون بهذا ، ولذلك نلحظ كثرة استخدامهم لاداة الامتناع (لو) غير أنّ هذا يزيد في تصوير حالهم الذي آلوا إليه، ويزيدهم كذلك من تصوير منزلة الفقيد في نفوسهم**))(٤٥) ، لذا نجد ابن الرومي يصرّح أنّه لو استطاع حيٌّ فداء ميت بنفسه، لكان هو أول مَن يفعل ذلك، فيقدم نفسه قرباناً لطفله، ولكن ليس لذلك من سبيل:

أقُرَّةَ عَيني: لو فَدى الحيُّ مَيِّتاً فَدَيْتُكَ بالحَوْباءِ أوّلَ مَنْ يَفْدِي (٤٦)

ويوسع التهامي من هذه الرغبة أكثر ممّن سبقه من الشعراء، فيتمنى لو تقاسم الموت مع طفله، أو الموت معاً، أو مشاركته عمره ، غير أنه سرعان مايستدرك – كابن الرومي – ويعلم أنّ تلك الأماني مستحيلة التحقيق، فيصرّح بأنّ الأرواح ملك لله (سبحانه وتعالى) ولا يملك الانسان شيئاً منها:

فواللهِ لو أسطيع قاسمتُهُ الرّدى فمتنا جميعاً أو لقاسمني عمري
ولكنما أرواحنا ملكُ غيرنا فما لي في نفسي ولا فيه من أمرِ
وما اقتضت الأيّامُ إلّا هباتها فهلاّ اقتضتها قبل أنْ ملأتْ صدري(٤٧)

وكان أسامة بن منقذ يخشى الموت قبل طفله، فيعاني ذلك الطفل من اليتم ما يعاني، ولم يخطر بفكره (الأب) أنّه سيتذوق ألم موت الابن، فيتمنى – في تلك اللحظة– أمنية مستحيلة، وهي أنْ يكون هو الميت، فيصبح ابنه يتيماً، قائلاً :

خَشِيتُ عليه اليُتْمَ، لكنّ ثُكْلَهُ ولوعَتَه لم يَخْطُرا لي على فِكْرِ
فياليتَه لاقى الذي كنتُ أختَشِي عليه، وأنّي دُونَه صاحِبُ القَبْرِ (٤٨)

وبمقدار ما كان الشاعر خائفاً من أنْ يغدو ابنه يتيماً بعد موته، نراه يكرر أمنيته السابقة بالموت بدلاً عنه، في الوقت الذي يصبح فيه ابنه يتيماً، وذلك لا ينمّ إلاّ عن تعلقه غير

الاعتيادي به، ولعله رُزِقَ به بعد مدّة طويلة من حياته، ومن هنا يبدو لنا سرّ خوفه عليه من اليتم أولاً، وتمنّي الموت دونه ثانياً في قوله :

خَشيتُ عليه اليُتمَ بعدي، فَلَيتنِي رُميتُ بما أخشى، ولم أُرْمَ بالثُّكلِ(٤٩)

ومن علامات الحزن التي رافقت قصائد الشعراء العباسيين لأطفالهم ما تطرّقوا له من عقد الموازنات بين حال الأب الحي وما آل له الطفل المتوفي، إذ تحدّثوا عن الفرق بين الاثنين من نواحٍ عدة، فعندما يُدْفَن الطفل من لدن الوالد، يعدّ ذلك الوالد ابنه هدية أهداها الى التراب، وتلك الهدية تمتاز بالصفات الايجابية طبعاً، في الوقت الذي يكون فيه المُهدِي متحسّراً؛ لأنه أهدى عزيزاً على قلبه، ودفنه بيديه في التراب:

بُنَيَّ الذي أهدَتْهُ كفّاي للثّرى فيا عِزّةَ المُهْدَى ويا حَسْرَةَ المُهْدِي(٥٠)

وبذلك يكون الطفل قد أُفرِدَ وحيداً في دار الوحشة بعد دفنه، في حين يكون الأب في دار الأنس منفرداً في وحشته ، لذا يتمنى الموت؛ ليلتحق بركب ابنه، وذلك كله يتحدث عنه الشاعر بلسان يبعث الحزن الذي يكون مؤثراً جداً في سمع المتلقي، من خلال العبارات التي تثير الأسى بسبب ما مرَّ به من ألم فراق طفله:

وأنتَ وإنْ أُفْرِدْتَ في دارِ وَحْشَةٍ فإني بدار الأنْسِ في وحشة الفَرْدِ

أودُّ إذا ما الموتُ أوفَدَ مَعْشَراً إليهِ عَسْكَرِ الأمواتِ أنّي من الوَفْدِ(٥١)

وفي بعض الاحيان يصرّح الأب أنه بعد دفن ابنه قد جاور أعداءه، في الوقت الذي أصبح فيه ابنه مجاوراً لربّه، لذا يرى أنّ هناك فرقاً كبيراً بين جوار ابنه وجواره، قائلاً:

جاورتُ اعدائي وجاوَرَ رَبَّهُ شتّانَ بين جوارِهِ وجواري(٥٢)

وتغدو الأرضُ مظلمةً في عينَي الأب بعد موت الطفل، فيصبح دهره ليلاً طويلاً لا ينتهي، ولا تشرق فيه الشمس، وما ذلك كلّه إلّا لأنه دفن ابنه في تلك الأرض، ولاسيما أنه يعلم بعدم امكانية استرداده منها الى قيام الساعة :

أرى الرَّملةَ البيضاء بعدك أظلمت فدهري ليلٌ ليس يفضي الى فجرِ

وما ذاك إلّا أنّ فيها وديعة أبى ربُّها أنْ تسترد الى الحشرِ(٥٣)

إنّ مرارة الإحساس بفقد الابن تجعل الشاعر الراثي يشعر بالموت أيضاً، ولكن موته فيه تعب له، على النقيض تماماً من موت الطفل الذي يستريح بموته، بحسب تعبير الأب من خلال الطباق الحزين الذي أحدثه في بيته بين لفظتي الراحة والتعب :

أنا مَيْتٌ مثلُهُ، لكنّهُ مستريحٌ، ومماتي في تَعَبْ (٥٤)

ويتكرر المعنى نفسه في صورة اخرى، ومناسبة مختلفة، إذ ليس للأب راحة في الدنيا بعد دفنه طفله، وفيما لو طال عمر الأب، فان حزنه سيكون طويلاً كذلك، وهنا يزداد همّ الشاعر الذي لا يجد سبيلاً للخلاص منه :

فما في حياتي بعدَهُ لي راحةٌ فيا طولَ حُزني إنْ تطاولَ بي عُمْرِي (٥٥)

كما انمازت قصائد رثاء الأطفال من لدن الشعراء الآباء بالشكوى العارمة جرّاء فعل القدر بأولئك الأبناء الصغار الذين سرعان ما رحلوا عن الدنيا قبل أن يُسْعَدوا بها أو يُسعِدُوا ذويهم بأنفسهم، إذ فارقوها وتركوا الحزن العارم يخترق أكباد أهلهم، ولاسيما الآباء الذين عبّروا عن ذلك الحزن من خلال رثائهم لهم، ومن أولئك الشعراء بشار بن برد الذي جعل شكواه الى الله (جلّ وعلا) لما أصابه من هول الفاجعة، وصوّر في شكواه استجابة طفله لداعي الموت حين دعاه، وأبدى في الوقت نفسه معاناته جرّاء فعل المنايا الذي كان يروعه بأطفاله دوماً ، قائلاً :

الى اللهِ أشكو حاجةً قد تقادَمَتْ على حَدَثٍ في القلبِ غَيرِ مُرِيبِ
دَعَتهُ المنايا فاستجابَ لِصَوتِها فللهِ مِن داعٍ دعا ومُجيبِ
أظَلُّ لأحداثِ المَنُونِ مُرَوَّعاً كأنَّ فُؤادِي في جَناحِ طَلُوبِ (٥٦)

وكان بعدُ الطفل عن أبيه بعد دفنه مضموناً آخر من مضامين الشكوى لدى الآباء، الى الدرجة التي يصوّر فيها بعضهم مدى قرب الشرق من الغرب، في الوقت الذي يعتقد فيه بعد المسافة بينه وبين ابنه الرازح تحت الثرى من الناحية النفسية، وإلّا فالمسافة قريبة جدّاً كما يعلم هو نفسه :

أشكو بُعادَكَ لي وأنت بموضعٍ لولا الرَّدى لسمعتَ فيه سراري
والشرقُ نحو الغربِ أقربُ شُقَّةً من بُعدِ تلك الخمسةِ الأشبار (٥٧)

كما اشتكى الشعراء من فقد أطفالهم، وابرز من صوّر تلك الشكوى الشاعر التهامي، إذ شبّه فقده لابنه بفقد الماءِ في البلدِ القفر، في دلالة لشدة حاجته إليه، وعلى الرغم من ذلك مات طفله وتركه يعاني ما يعاني من الآلام والأذى، فيقول:

الى اللهِ أشكُو ما أجنّ وإنّني فقدتكَ فقدَ الماءِ في البلدِ القفرِ (٥٨)

ولم تبتعد شكوى اسامة بن منقذ – في مضمونها – عن شكوى التهامي، فهو يشكو فقد طفله الذي سبب له – بموته طبعاً– حرقة في الاحشاء، وجعل مصيبته كبيرة ، وخوفه متسلطاً عليه إذ قال :

الى اللهِ أشكو رَوعَتي ورَزيَّتي وَحُرْقَةَ أحشائي لفقد أبي بَكْرِ (٥٩)

إلّا أنّ الصبر كان حليف بعض الشعراء، فخفف من حدّة حزنهم، فضلاً عن طلبهم للاجر من وراء ذلك الصبر، فبشار بن برد يعلن عن أنّ صبره بسب تقوى الله (تعالى) ، ولولا ذلك لطال نحيبه على ابنه المتوفى ، فقال :

صَبَرْتُ على خيرِ الفُتُوِّ رُزِئْتُهُ   ولولا اتِّقاءُ اللهِ طالَ نَحِيبي(٦٠)

وعلى الرغم من بكاء بعض الشعراء على أطفالهم، نراهم يستعينون بالصبر، فيعزّون به أنفسهم طلباً للأجر والثواب، مع ما في صدورهم من الألم الذي يكاد يلهب قلوبهم بنيرانه، ولكنهم مع ذلك يجلدون قلوبهم بالصبر:

فإنْ أبْكِ فالقربى القريبة تقتضي   بكائي وإنْ أصبر فبقيا على الأجرِ

فبي منهُ ما يُوهي القُوى غير أنّني   بُنيتُ كما يُبنى الكريمُ على الصبرِ

وما صَبْرُ محزونٍ جناحُ فؤاده   يرفرف ما بين الترائبِ والنَّحْرِ (٦١)

وتتكرر ثيمة طلب الأجر من خلال صبر الأب على فقد ابنه كثيراً في رثائيات الأطفال من لدن الآباء، فهم لم ينسوا أطفالهم بمرور الأيام، ولكن الصبر الذي تحلّوا به كان يخفف عنهم هول الكارثة :

ولم تُسْلِنِي الأيّامُ عنهُ، وإنَّما   سُلُوِّي بما أرجو مِنَ الأجرِ في الصَّبْرِ(٦٢)

وقد يتصارع الحزن والصبر في بعض الأحيان في قلب الشاعر، فيتغلب الحزن على الصبر، ممّا يؤدي الى تطاير الشرر من نيران الأسى لدى الشاعر المحزون، في إشارة الى دخول الشاعر في مرحلة الانهيار العصبي بسبب موت طفله، ممّا لم يدع للصبر سلطة عليه في مثل هذه الحال :

وأكُفُّ نيرانَ الأسى ولربّما   غُلِبَ التصبُّرُ فارتمتْ بشرارِ (٦٣)

وقد يؤول الصبر الى الرفض جملة وتفصيلاً في بعض الحالات التي يتملك فيها الحزن صاحب الفاجعة، ويجعله غير مدرك لما حوله، فما يدركه فقط موت طفله الذي جعله يرفض كلّ شيء حوله، فلا صبر ولا سيطرة على نفسه سوى ذرف الدموع، واطلاق الصرخات والعويل على المفقود، وبذلك يكون الشاعر رافضاً فكرة الصبر هنا، ولاسيما في بداية الصدمة، وبعد دفن الطفل مباشرة، ومن ذلك ما تحدث به التهامي من أنه دفن ابنه ودفن معه قلبه الذي يحتوي الصبر، لذا نراه يطلب من الآخرين ألّا يسالوه صبراً على فقده طفله، فيقول:

فلا تسألوني عنهُ صبراً فإنّني   دفنتُ به قلبي وفي طيِّه صبري (٦٤)

ومن المعروف أنّ بعض التجارب التي يخوضها الانسان في حياته تجعله يفرز حكماً، ولا سيما إذا ما كانت التجربة مأساوية أولاً، وكان صاحبها شاعراً ثانياً، لذا فموت الأطفال الذي

جعل مرور الزمن طويلاً على ذويهم، جعلهم (الآباء) يفرزون حكماً شعرية رائعة تتناسب مع الظرف الذي هم فيه من حيث الشكل والمضمون، وذلك في قصائدهم التي اتخذت بكاء الأطفال موضوعاً لها، وبطبيعة الحال فان الحكمة الناتجة عن مثل هذا المضمون، أعني مضمون رثاء الأطفال، ستكون ذات صلة بالحياة والموت ومسيرة حياة الانسان بينهما، فصدمة الشاعر بموت ابنه تُضائل متعة الحياة لديه، وتجعله متشائماً ولايعير أيّة أهمية لها، ولاسيما أنّ ذلك الابن مازال طفلاً، ولم يدرك سرّ متعة الحياة بعد، ومن تلك الحكم أنّ الانسان سيسير في الاتجاه الذي سار فيه مَن سبقه، أي الطريق المؤدية الى الموت؛ لأنّ الموت الذي يصيب السابقين سيأتي ويصيبه في المرّة اللاحقة، وربما يكون الموت راحة للمتحدث، فهو أفضل من الحياة الذميمة التي تضرّ الأبدان والقلوب، لكثرة ما يُصاب فيها الإنسان بالمصائب ، ولاسيما مصائب الموت لذويه وأقربائه:

وما نحنُ إلّا كالخليط الذي مضى ... فـرائِسُ دَهـرٍ مُخْطِـئٍ ومُـصِيبِ
نُؤَمِّـلُ عَيـشاً فـي حيـاةٍ ذَمِيمَـةٍ ... أضَـرَّتْ بأبـدانٍ لنـا وقُلُـوبِ
وما خيـرُ عَـيشٍ لا يَـزالُ مُفجَّعـاً ... بمـوتِ نَعِـيمٍ أو فِـراقِ حبيـبِ
إذا شِـئتُ راعتنِـي مُقِيمـاً وظاعنـاً ... مَـصارعُ شـبّانٍ لَـدَيَّ وشـيبِ (٦٥)

وقد تُفْرَز الحكمة من واقع مرير لدى صاحبها، فموت الأبناء واحداً تلو الآخر يكون أشدّ وقعاً على الأب من غيره الذي يموت له طفل واحد، لذا يجد الشاعر نفسه في مثل هذه الحال متعباً من كثرة وصف ماينالـه من المصائب، ولاسيما حين يموت أبناؤهُ بفارق زمني قليل بين السابق واللاحق، لذا فهو يرى أنّ حزنه متجدد بتجدّد الأيام والسنين، في الوقت الذي تنتهي فيه احزان الآخرين، فحكمته–نتيجة مأساته هذه– هي أنّ الناس لايمكن أن يعرفوا معنى الحزن مالم يمت أولادهم، ففي تلك الحال فقط يدركون معنى الألم الحقيقي، ويتذوقون طعم الحزن الذي سبقهم في الشرب من كأسه ، فيقول:

كَـلٌّ لـساني عـن وصـف مـا أجـد ... وذُقـتُ ثُكْـلاً ماذاقـه أحـدُ
مـا عـالَجَ الحـزنَ والحـرارةَ فـي الـ ... أحـشاءِ مَـنْ لـم يَمُـتْ لـهُ وَلَـدُ
فُجِّعْـتُ بـابنيَّ لـيس بينهمـا ... إلّا ليـالٍ مـا بينهمـا عَـدَدُ
وكـلُّ حـزنٍ يَبْلَـى علـى قِـدَمِ الـ ... ـدَّهْر وحُزنـي يُجِـدُّهُ الكَمَـدُ (٦٦)

ومن الغريب أنّ بعض الناس يلومون الأب على حزنه لموت طفله، وعذرهم في ذلك أنّه مازال صغير السِّنِّ، وذلك لانهم – فعلاً – لم يشعروا بألم الاب الحقيقي، فموت الابن سواء أكان صغيراً أم كبيراً ، يترك لوعة في القلب ، ويشعل جمرة فيه لا تنطفئ ، لذا فان التهامي يردّ على مثل أولئك اللائمين من ذوي القلوب المتحجرة بحكمة افرزها من واقع حزنه، مصوراً من خلالها

ما كان يمثله له طفله المفقود، مفادها أنّ بعض الأشياء الضخمة في أحجامها يراها الناس صغيرة، لذا فالأمور لايمكن قياسها بأحجامها الشكلية، بمقدار قياسها من حيث جواهرها، وأصدق مثال على ذلك في رأي الشاعر هو الكواكب التي يراها الناس صغيرة الحجم بسبب ارتفاعها عالياً، في حين أنها على العكس من تلك الصفة التي يعتقدها الناس فيها:

إنْ يُحتَقَر صِغَراً فربَّ مُفخَّمٍ ... يبدو ضَئِيلَ الشَّخصِ للنظارِ

إنَّ الكواكبَ في عُلُوِّ مَحَلِّها ... لَتُرى صِغاراً وهي غيرُ صغارِ (٦٧)

ويبقى الموضوع الأساس للحكمة في المجال هذا هو أنَّ الناس جميعاً سائرون في هذه الدنيا الى نهاية معروفة، وإنْ ظنّوا خلاف ذلك، لأنّ الناس كركّاب السفينة يظنون وقوفها في حين استمرارها في سيرها الى الطريق التي يقصدونها، فغاية الجميع الى القدر المحتوم (الموت) ، على الرغم من عدم شعورهم به :

وإنّا لفي الدنيا كركبِ سفينةٍ ... نُظَنُّ وقوفاً والزمان بنا يجري

وأفنيتُ أيّاماً فنيتُ بمرِّها ... وغاية ما يفنى ويُفني الى قَدْرِ (٦٨)

ولعل تشابه المشاعر الانسانية في مثل هذه المواقف، فضلاً عن تشابه الغرض، كانا العاملين الرئيسين في تشابه مضمون الحكمة لدى بعض الشعراء العباسيين، فالحكمة التي جادت بها قريحة أسامة بن منقذ لم تختلف عن حكمة التهامي آنفة الذكر، إذ يدعو فيها الشاعر الآخرين الى عدم التأسّي لموت الأطفال؛ لأنّ الناس جميعاً ذاهبون في الاتجاه نفسه الذي ذهب اليه الأطفال، كما يذهب المسافرون الى مكان ما، فبعضهم يصل مبكراً، ويتأخر بعضهم عمَّن سبقهم :

وعلامَ الأسى ؟ ونحنُ كَسفْرٍ ... بعضُنا سائرٌ ، وبعضٌ نُزُولُ

عَرَّسَ الأوَّلُونَ، والأخرُ التّا ... لي إليهمْ عمّا قليلٍ يئُولُ

والى حيثُ عَرَّسَ السَّلَفُ الأوَّ ... لُ ميعادُنا، ومنه القُفُولُ (٦٩)

ويختم الشاعر حكمه التي طرحها من خلال قصائده في رثاء طفله بحكمة يعرف الجميع مضمونها، إلّا أنه يصيغها صياغة مؤثرة في نفس المتلقي بسبب حزنه على ابنه الذي افتقده مبكراً، فتلك الحكمة تشير الى أنّ الأمل موجود في جمع الشمل بين كل مَن ابتعد باستثناء الأموات الذين من الاستحالة جمع شملهم، فذلك الأمل مفقود معهم :

فكلُّ بعيدٍ يُرتَجى جَمعُ شَمْلِهِ ... وبُعدُ المنايا غير مُجتمعِ الشَّمْلِ (٧٠)

كان ذلك كله متعلقاً برثاء الاطفال من الذكور فقط، أمّا ما يخصّ رثاء الاناث فانه لا يختلف عن رثاء الأبناء الذكور من ناحية الإحساس بالمرارة ، إلّا فيما يتعلّق بالكمية، اذ لم يكن رثاء الاناث بحجم رثاء الذكور، والسبب معلوم لدى الجميع، ولاسيما في مثل حال المجتمع في

ذلك الوقت ، إلّا أنّ رثاء الآباء لهنّ كان يصدر عن احساس مرير كما في رثاء الذكور؛ لأنّ الإحساس بفقد الطفل – ذكراً كان او أنثى– لا يختلف، فكلاهما عزيز على الأب المفجوع بأحدهما، فبشار بن برد يركّز – في رثائه لابنته – على قضية مهمة ، أَلاَ وهي حبّ الأناث أو العكس من لدن الأهل، أمّا بالنسبة له شخصيّاً لاحظنا أنه فضّلها على الذكر الذي يقضي شبابه بالسكر والكذب ، لذا رثاها حين توفيت – بعد أيام من ولادتها – بقلب مفجوع فتّته الجوى بحسب قوله:

يـا بنـتَ مَـنْ لـم يَـكُ يَهْـوى بِنتـا ... مـــا كُنـــتِ إلّا خَمْـــسَةً أو سِـــتًّا
حتَّـى حَلَلْـتِ فـي الحَـشى وحتّـى ... فَتَّـــتِّ قلبـــي مـــن جَـــوًى فانفتَّـــا
لَأَنْـــتِ خَيـــرٌ مـــن غُـــلامٍ بَتَّـــا ... يُـصْبح سَـكرانَ ويُمْـسِي بَهْتـا (٧١)

ولعلّ الصنوبري كان أكثر الشعراء العباسيين رثاء لابنته (ليلى) ، التي اختطفها القدر منه ، فتركه يعالج الهمَّ بفقدها، ولاسيما أنها كانت ابنته الوحيدة، ففي احدى قصائده فيها يرى أنّ الفاصل بينه وبينها ليس الأشبار المعدودة، بل عرض الأرض بأكمله، وحينما يزورها يطلب منها أن تجلس لاستقبال زوّارها بعد أن يدعوها بنور عينه، ثم يبدأ بإخبارها عن وحشة الدار من دونها ، ويعلن بحزن بالغ – في نهاية قصيدته – عن أنّ شعره كان الناس يتغنون به، ولكن بعد موت ابنته أصبحوا يستحسنون شعره للنوح والبكاء لشدّة الحزن الطاغي من الفاظه وعباراته:

كـأنّ عَـرْضَ الأرضِ مـا بيننـا ... وبيننـــا خمـــسةُ أشـــبارِ
يـا نـورَ عينـي والتـي لـم تـزل ... مـــن نُورهـــا تُقْـــبَسُ أنـــواري
يـا رَبَّـةَ القبـر المـضيءِ الـذي ... يُـضِيءُ ضـوءَ الكوكـبِ الـساري
قُـومِي الـى زَوْرِكِ أو فاجلـسي ... فـــــانهم أكـــــرمُ زُوّارِ
قُـومي الـى دارِكِ قـد أنكـرتْ ... صَـــبْرَكِ عنهـــا أي إنكـــارِ
استوحـشتْ دارُكِ مـن أهلهـا ... واسـتوحشَ الأهـلُ مِـنَ الـدارِ
واحـدتي أمـسيتِ فـي وَحْـدَةٍ ... مِـــن بَعـــدِ أُلّافٍ وسُـــمَّارِ
مـا بـالُ جيرانِـك أهـلِ البِلـى ... هـــل داركَـــتْهمْ رقَّـــةُ الجـــارِ
كنـتُ القريـرَ العـينِ إذ كنـتِ لـي ... تحلـــو أحـــاديثي وأخبـــاري
وكـــان شـــعري يُتَغَنَّـــى بـــه ... فاستُحْـسِنَتْ للنـوحِ أشـعاري(٧٢)

وحين يحلّ شهر الصيام يتذكر الصنوبري ابنته فيدخل في محاورة معها في احدى قصائده، ذاكراً غيابها عن رمضان هذه المرة بعد أنْ كانت أُنسَ لياليه سابقاً، ثُمَّ يُؤبَنها بعدم النوم في تلك الليالي، لأنها كانت تقضيها بالدعاء وقراءة القرآن، إذ يقول:

يـا ابنتـي أيـن غِبـتِ عـن ... رمـــضانٍ وقـــد حَـــضَرْ

فلقـــــد كُنـــــتِ أُنـــــسنا | فـــــي عــــــشاياهُ والبكــــــرْ
ولقـــــد كنـــــتِ بعـــــتِ نَـــوْ | مَ لياليــــــــــــه بالـــــــــــسَّهَرْ
واعتكـــــافٍ علــــى الـــــدعا | ءِ أو الـــــدرسِ للـــــسُّوَرْ (٧٣)

ثم يأتي ردّ الابنة على كلام أبيها، فتخبره بعدم علم الأموات بقدوم شهر رمضان، فهم لايرون الهلال كالأحياء، ولاينتظرون قدوم العيد، ثم تستدرك بقولها: إنّ المحاسن قد درست وأصحبت من الماضي ، وأصبح الموتى في هذه المقابر لايشعرون بأيّ شيء، حتّى أنهم لايعلمون مَن جاءهم زائراً ومَن قام بهجرهم:

يـــا أبـــي لـــيس عنـــدَ مَـــنْ | مــــــاتَ علــــــمٌ ولاخَبَــــــرْ
لاهِــــلالُ الــــصيامِ يُـــــرْ | عَــــى ولا الفطــــرُ يُنتظــــرْ
لافطــــــــورٌ ولاســــــــحو | رٌ لنـــــا إنْ دنـــــا الـــــسَّحَرْ
لا ولا أُهْبَــــــــةٌ لعيـــــــــــ | ـــــدٍ حــــلا العيــــدُ أو أمَــــرّ
دَرَسَــــــتْ يـــــاأبي المحـــــا | ســــــنُ وانمَحَّـــــتِ الـــــصُّوَرْ
نحـــن فـــي عـــالم طـــوى | صَــــرْفُهُ البـــدوَ والحَــــضَرْ
فـــي ثَـــرًى لايُحَـــسُّ فيــــ | ــــهِ بِمـــــنِ زارَ أو هَجَـــرْ (٧٤)

ولشدة حبّ الشاعر لابنته واعتزازه بها، نراه يعلن عن أنّه لن ينساها أبداً، وسيستمر بذرف الدموع عليها بحوراً، فهو أحقّ بالبكاء عليها من بكاء الطيور على الطيور بحسب قوله:

أبــت رؤيــا الــسرورِ عُيــونُ قــومٍ | رأوا ليلـــى تـــسيرُ علـــى سَـــريرِ
ســأبكي، مــا بكــى القمــريُّ، بنتــي | ببحــرٍ مــن دمــوعي بــل بُحــورِ
ألــستُ أحــقَّ أن أبكــي عليهــا | إذا بكـتِ الطيـورُ علـى الطيـورِ (٧٥)

واذا كان الصنوبري في النص السابق يبكي على ابنته ببحر من الدموع، فانه في مناسبة أخرى يبكي دماً عليها، وذلك حين يدور على جوانب قبرها متلهفاً مشتاقاً إليها ، فيرعاه كما يرعى الممرّض مريضه، ثم يصحو الشاعر بعد حين من لوعته وذهوله وقد اقتنع بأنّ ابنته لم تكن إلّا قرضاً استرجعه الدهر منه، وتركه خالياً من الصبر، وغير قادر على امتلاك دموعه والسيطرة على ألمه ومعاناته:

شُــغِلْتُ ببـــابِ قنَّــسْرينَ عَمَّـــا | ســــواهُ مـــن حبيـــبٍ أو بغـــيضِ
أدورُ علـــى جوانـــب قبـــر ليلـــى | وأبكـــي حَولَـــهُ بـــدمٍ فـــضِيضِ
أُراعـــي قَبرَهـــا حَـــدِباً عليـــه | مراعـــاةَ الممـــرِّض للمـــريضِ
ويتــرك مــضجعي أُخــرى الليــالي | قضيـضاً ذكـرُ مَـضْجَعِها القـضيضِ

أواحـــدتي رُدِدْتِ وكنـــتِ قَرْضـــاً وهـــذا الـــدهرُ مـــردودُ القـــروضِ
فكـــم أقْرَحْـــتِ مِـــن قلـــبٍ قـــريحٍ عليـكِ وهِـضْتِ مـن عَظْـمٍ مهـيضِ
وكـــم غـــادرتِ مِـــن طَـــرْفٍ كليـــلٍ وكـم غـادرتِ مـن طَـرْفٍ غَـضيضِ
وبعضُ الصَّبرِ ينهضُ حين يكبو وصبري عنكِ ليس بذي نُهوضِ(٧٦)

وكانت الحكمة نهاية المطاف في رثاء الطفلة لدى الصنوبري، فلكثرة بكائه عليها وحزنه لموتها توصّل الى أنّ كلّ شيء في الوجود مقدّر، وما علينا سوى تقبّل أقدارنا والرضى بها، ولاسيما إذا ما أدركنا أنّ نفوسنا وأرواحنا ودائع لابُدَّ أنْ تُرَدَّ يوما الى خالقها ومُقرضها، لذا علينا القبول بمصيرنا في هذه الدنيا مهما كان، سواء في الفرح أو في الترح:

مـــا وُلِـــدَتْ نَفْـــسٌ ولا أُرْضِـــعَتْ مانُزِّهَـــــتْ نفـــــسٌ ولا مُتِّعَـــــتْ
مـــــا قُـــــدِّرَتْ أرزاقُ أيّامنـــــا فـــضُيِّقتْ فـــي القَـــدرِ أو وُسِّـــعَتْ
إلّا لتُـــــدْعَى عنـــــد ميقاتهـــــا حتـــــى اذا مـــا دُعِيَـــتْ أســـرعتْ
بنتُـــكَ يـــا أحمـــدُ فاقْـــلُ الأســـى وديعـــةٌ فـــي يَـــدِكَ اســـتودِعَتْ
فكيـــفَ لايَظهـــرُ ســـيما الرِّضـــى عليـــكَ إذ كانـــت قـــد اســـتُرْجعتْ(٧٧)

ولم يقتصر ذكر الأطفال في الشعر العباسي على رثائهم من لدن آبائهم فحسب ، بل تعدّى الأمر الى ذكرهم والتطرق إليهم في موضوعات كثيرة، ومناسبات مختلفة، وهذا ما سنفصّل الحديث عنه فيما سيأتي من دراستنا هذه.

لقد انبرى بعض الشعراء الى تعزية ذوي الأطفال المتوفين في قصائدهم ، إذ سرعان ما يتصدون لهذه الفاجعة ، في محاولة منهم لبث الصبر والسلوان في نفوس الأهل الذين فُجعوا بأحد أبنائهم، ومن أولئك الشعراء البحتري الذي قال معزّيا أحدهم في ابنته:

أبـــا حَـــسَنٍ! إنّ حُـــسْنَ العَـــزَا ءِ عنـــد المُـــصِيباتِ والنـــازلاتِ
يُـــضاعِفُ فيـــهِ الإلـــهُ الثَّـــوَا بَ للـــــصَّابرين وللـــــصّابراتِ
ومَنْزِلَـــةُ الـــصَّبْرِ عنـــد الـــبَلَاءِ كمنزلـــةِ الـــشُّكْرِ عنـــدَ الهِبـــاتِ
ومِـــنْ نِعَـــمِ اللّـــهِ، لاشَـــكَّ فيـــهِ بقـــاءُ البَنـــينَ ومَـــوتُ البنـــاتِ
لِقـــولِ النَّبـــيِّ عليـــهِ الـــسَّلا مُ: دَفْـنُ البنـاتِ مِـنَ المَكْرُمـاتِ! (٧٨)

وكان الصبر في نصّ البحتري الثيمة الرئيسة التي أرادها الشاعر لأهل المتوفاة، ففيه الثواب والأجر، أمّا كلامه الآخر فليس منطقياً ولاشأن لنا فيه، لأنه يخالف المشاعر الإنسانية ، فضلاً عن الشريعة الاسلامية التي لاتفرق بين أحد.

ولكن البحتري نفسه أبدع في توجيه العزاء في مقطوعة وجّهها الى الخليفة المعتز بالله، وذلك حين توفي له طفل من أطفاله، إذ بدا فيها معتنياً بمعانيه ودلالاتها، فضلاً عن ألفاظه وتراكيبه ، وملخّص عزائه أن موت الطفل يعظّم الأجر لوالده عند الله (سبحانه وتعالى) ، ولا شك بأن الله (تعالى) سيعوضه عنه خيراً، وذلك لصبره على محنته وعدم جزعه ، فيقول:

بنَا، لابِكَ الخَطْبُ الذي أحْدَثَ الدَّهْرُ ... وعُمِّـرْتَ، مَرْضِـيًّا لأيَّامِـكَ العُمْـرُ!
تعـيشُ ويأتيـكَ البنُـونَ بكثـرةٍ ... تَـتِمُّ بهـا النُّعْمَـى ويُـسْتَوجَبُ الـشُّكْرُ
لَـئِنْ أفَـلَ الـنَّجْمُ الـذي لاحَ آنِفًـا ... فـسوفَ تَـلَالَا بَعـدَهُ أنجُـمٌ زُهْـرُ
مَضَى وهو مَفقُودٌ ، ومافَقْدُ كَوكَبٍ ... ولاسـيّما إذْ كـان يُفـدى بـه البـدرُ
هو الذُخْرُ من دُنياكَ قدَّمْتَ فَضْلَهُ ... ولا خَيْرَ فـي الدُّنيا إذا لـم يكُنْ ذُخْرُ
نُعزّيـكَ عـن هـذي الرَّزِيَّـةِ إنَّهـا ... على قَدْرِ ما في عُظمِها يَعْظُمُ الأجْرُ
فـصبراً – أميـرَ المـؤمنينَ- فربمـا ... حَمِدْتَ الذي أبلاكَ في عُقْبِهِ الصَبْرُ(٧٩)

وقد يكون المعزّى قد تعرّض لمحنٍ عدّة، واحدة تلو الاخرى ، لذا نجد الشريف الرضي مُعزِّياً أحد اصدقائه عن بنت توفيت له بعد بنت أخرى ، ويدعو من الله (تعالى) أنْ يسقي التراب الذي يضم عظام تلك الطفلة ، قائلاً :

عـادَ الحِمـامُ لأُخـرى بعـدَ ماضِـيَةٍ ... حتّـى سَـقَاكَ الأسـى عَـلًّا علـى نَهْـلِ
[.....]
سـقَى الإلَـهُ تُرابـاً ضَـمَّ أعظُمَهـا ... مُجَلجَـلَ الـوَدقِ مجـروراً علـى القُلَـلِ
ولايــزالُ علـــى قَبْـــرٍ تَـــضَمَّنها ... بَرْقاً يَشُقُّ جُيُوبَ العارِضِ الهَطِلِ(٨٠)

ومن تعزية ذوي الأطفال بموتهم، الى تهنئتهم بولادتهم، إذ استثمر كثير من الشعراء العباسيين ولادة المواليد الجدد لذوي الجاه والسلطان بوصفهم حُججاً مفرحة للحصول على الأموال على الأكثر ، فقدموا تهنئاتهم للخلفاء أو الوزراء أو لذوي الثراء عموماً، وبذلك أصبح لدينا منفذ آخر يَكثُرُ فيه ذكر الأطفال ، فأبو العتاهية يهنّئ الخليفة الهادي بمولود له، ذاكراً في مقطوعته أنّ الخليفة أغاظ حسّاده بأولاده، ولاسيما المولود الجديد الذي اكتست الأرض بهجة به، وابتسم المنبر لقدومه، ويتأمّل الشاعر فيه خيراً كثيراً بعد مدّة من الزمن، إذ يغدو قائداً شجاعاً وحوله جنوده الأبطال الذين يخوض بهم غمار الحروب ويحقق الانتصارات المتتالية:

أكْثَـرَ موســى غَـيْظَ حُـسّادِهِ ... وزَيَّـــــــنَ الأرضَ بـــــــأولادِهِ
وجاءنـــا مـــن صُـــلبِهِ سَـــيِّدٌ ... أصْـــيَدُ فـــي تَقْطِيـــع أجـــدادِهِ
فاكتَـــسَتِ الأرضُ بـــه بَهْجَـــةً ... واسْتَبْـــشَرَ المَلْـــكُ بمـــيلادِهِ

وابْتَسَمَ المِنْبَرُ عن فَرْحَةٍ ... عَلَتْ بها ذَرْوةَ أعوادِهِ
كأنّني بعدَ قليلٍ به ... بين مَوالِيهِ وقُوّادِهِ
في مَحْفِلٍ تَخْفِقُ راياتُهُ ... قد طبَّقَ الأرضَ بأجنادِهِ[٨١]

واذا كان أبو العتاهية قد هَنَّأَ الخليفة الهادي بالمولود الجديد، فان ابن الرومي هَنَّأ مولى الخليفة المعتضد بابنٍ وُلِدَ له، جاعلاً إيّاه بدر البدور وصنديد الصناديد، قائلاً:

يا ابن الوَزيرينِ وابنَ السادةِ الصِّيدِ ... ياسيِّداً غير مظلومٍ بتَسْويدِ
لكَ الهناءُ بمولودٍ أقرَّ بهِ ... عَيْنَيْ أبي النَّجْمِ مَولَى كلِّ تمجيدِ
وكان أهلاً لما يُولاهُ من حَسَن ... بدرُ البدُورِ وصنديدُ الصَّناديدِ
بدرٌ حَباهُ بِنَجْم من حباهُ بكُمْ ... يا آل وَهْب بَني الغُرِّ الأماجيدِ [٨٢]

أما الصنوبري، فانه يُهنئ شخصاً يدعى (ابن السبيعي) بمولود له، مدَّعيًا أنّ هذا المولود يتعجّب به كلّ مَن رآه من قحطان ومضر، ويدعو لأبيه أنْ تَقَرَّ عينه به، وأنْ يسلم له المولود من مصائب الدنيا وهمومها الى أنْ يفرح به وبما سيكون عليه مستقبلاً، وذلك في قوله:

سَحابُ مَجْدٍ تجلَّى عن سَنا قمَرِهْ ... وفَرعُ عزٍّ بدا الموموق من ثَمَرِهْ
يا ليلةً ظلَّ فيها الجودُ مُبتهجاً ... بطلعةِ الغُرَّةِ الغرَّاءِ من غُرَرِهْ
تَبْهَى سَبْيعُ بمولودٍ يتيهُ به ... مَنْ كان من بدو قطحانٍ ومن مُضَرِهْ
علامةُ اليُمْنِ فيه غيرُ مُشْكِلةٍ ... كالغيثِ مَنْظَرُهُ تُنْبيكَ عن خَبَرِهْ
لو قُدَّ من بعضِ أعضاء الندى [كذا] بَشَرٍ ... لَقُدَّ من سَمْعِهِ أو قُدَّ من بَصَرِهْ
قَرَرْتَ عَيناً أبا العبَّاسِ وابتسمتْ ... عن عمْرِكَ النِّعْمَةُ الطُّولى وعن عُمُرِهْ
وسالَمَتْكَ خُطوبُ الدَّهْرِ فيه ولا ... أُجيفَ دونَكَ بابُ الأمنِ من غِيَرِهْ
حتّى تُرِيكَ الليالي وَجْهَ بَهْجَتِهِ ... في صورةِ الكَرَمِ الحسناءِ من صُوَرِهْ [٨٣]

وقد تكون التهنئة بالمواليد الجدد مجرد قضية اجتماعية بين الأقارب والأصدقاء، ولايكون الدافع من ورائها التكسب او الحظوة لدى أصحاب الجاه والسلطان، كما في شعر الصاحب بن عباد، أو شعر الشريف الرضي كما سيأتي.

فحين أرسل أحد أصدقاء الصاحب بن عباد مقطوعة شعرية له يخبره فيها بولادة طفل له، طالباً منه في الوقت نفسه تسميته ، فضلاً عن إعطائه كنية يرضاها، إذ يقول فيها:

قُلْ للوزير المرتجى ... كافي الكفاة الملتجى:
إنّي رُزِقْتُ ولداً ... كالصُّبحِ إذ تبلَّجا
لازال في ظِلِّكَ ظِلْ ... لِ المكرماتِ والحِجى
فَسَمِّهِ وكَنِّهِ ... مُشَرِّفًا مُتَوِّجا [٨٤]

أجابه الصاحب ببيتين من الشعر يهنئه فيهما على المولود الجديد، ويطلب منه تسميته بـ (محسن) فضلاً عن اضفاء كنية (أبي الرجاء) عليه، قائلاً:

هُنِّئْتَ هُنِّئْتَ شمسَ الضحى بَدرَ الدُّجى
فَسَمِّهِ مُحَسِّنًا وكَنِّهِ أبا الرجا (٨٥)

وفيما يخصّ الشريف الرضي، فانه كان سبّاقاً الى القول في مثل هذه المناسبات، ولاسيّما لأقاربه وأصدقائه، لذا فان التهنئات التي كان يقدّمها لذوي المواليد لم يكن الدافع منها التكسب، فهو لم يكن شاعراً متكسّباً كما يُعْرَفُ عنه ذلك، حتّى في مدائحه للخلفاء العباسيين الذين عاصرهم أوسواهم.

وللرضي قصيدتان في التهنئة بالمواليد الجدد قدّمهما الى أخيه ، والملاحظ عليهما أنّه كان يمزج التهنئة بالفخر، فضلاً عن الحماسة الطاغية في أبياتهما، ففي قصيدته الأولى التي هَنَّأ فيها أخاه بمولودة جديدة، نرى أنه يتطرّق فيها الى عدم إنصاف الدهر لهم، إذ لو كان منصفاً معهم لما اقتنعوا إلّا بمواقع النجوم، ثم يدعو لأخيه ولابنته دعاءً جميلاً مشوباً بالحماسة الممزوجة بالفخر الشديد، ولاسيما حين يدعو أنْ تُذَلَّ بها عمائمُ القوم، فضلاً عن تطرّقه لشرف تلك البنت التي وصفها بأنها شرف للخمار الذي ترتديه، وذلك في قوله:

كما قَرَّ قلبُكَ يا ابنَ الحُسَينِ مِن شَوقِهِ وعُيونِ الفَخارِ
بمَولودِ غَرَّاءَ أعْطَيْتَهَا بُدُوَّ الأهِلَّةِ بعدَ السِّرارِ
أغارَتْ على الحُسْنِ أسبابُها، فأسبابُهُ عندها في إسارِ
ولاعَجَبٌ أنْ تَرَى مِثْلَها، وزندُكَ في كَرَمِ العِرْقِ واري
نَثَرْنَ عليها سوادَ القُلُوبِ، وكان الهَنا في خِلالِ النِّثارِ
ولو أنصفَ الدَّهرُ لم نَقْتَنِعْ بغيرِ قُلُوبِ النُّجُومِ الدَّراري
هَنَاكَ بها اللّهُ ما غَرَّدَتْ صُدُورُ القنا في أعالي نِزارِ
وأحْيَا بها لَكَ مَيْتَ العُلَى [كذا]، وأردى بها كُلَّ عَابٍ وعارِ
وَذَلَّتْ عَمائِمُ قَومٍ بها، كما أنها شَرَفٌ للخِمارِ(٨٦)

أما في قصيدته الثانية التي يهنئ فيها أخاه أيضاً بمولود ذكر، فان نبرة الفخر الحماسي لم تخلُ منها أيضاً ، إذ يرى أنّ ابن أخيه حين حلَّ في هذه الدنيا رُمِيَ أعداؤه بسهم نضا أحقادهم، وهم يرمونه بعيونهم كي يقتلوه حسداً، إلّا أنّ أبصارهم تخشع من مهابته، وتكون في مقلتيه مصارع نفوسهم، فضلاً عن أنهم لا يبتسمون بمقدمه فرحاً، بل يحاولون بتلك الابتسامات تغطية أحقادهم، فتكون ثغورهم دموعاً، وتصبح شفاههم مدامعاً لها بحسب قول الرضي نفسه:

لِيَهْنِكَ مَوْلُودٌ يُوَلِّدُ فَخْرَهُ أبٌ، بشرُهُ للسائِلينَ ذَرَائِعُ

وَلِيْـدٌ لَـوَ انَّ اللَّيـلَ رُدّي بوجهِـهِ، لمـا جاوَرَتْـهُ بـالجُنُوبِ المَـضَاجِعُ
ومَبْتَـسِمٌ، يَـرْتَجّ فـي مـاءِ حُـسْنِهِ، لـهُ مـن عُيُـونِ النـاظِرين فَوَاقِـعُ
رَمى الدَّهْرُ منـهُ كُلّ قَلْبٍ من العِدى بِـسَهْمٍ نَـضَا أحقـادَهم وهـوَ وادِعُ
يُرامُونَـهُ بـاللَّحْظِ كـي يَعـصفُوا بـهِ وأبـصارُهُمْ صُـورٌ لَدَيـهِ خَوَاشِـعُ
ومـا صَـرَعُوهُ باللِّحـاظ، وإنّمـا لأرواحِهِـم مـن مُقْلَتَيْـهِ مَـصَارِعُ
يَـوَدَّونَ أنْ لَـوْ كـان بـينَ قلـوبهمْ مَـعَ الحِقْـدِ، حَتّـى لاتَـراهُ المَجـامِعُ
متـى ابتَـسَمُوا، فـاعلمْ بـأنَ ثُغُورَهم دُمـوعٌ، لهـا تِلـكَ الـشّفاهُ مَـدامِعُ[٨٧]

ولم تقتصر التهنئة على المواليد الجدد فحسب، بل قد يُهَنِّئ الشعراء ذوي الطفل بمناسبة ختانه، كما فعل ابن الخياط حين هَنَّأ أحد كبار رجال الدولة في زمنه حين ختن ابنه (الحسن)، ولعلّ أجمل ما في قصيدته هي البيت الذي أبدى فيه تعجبه من نيّة الأب في تطهير ابنه، ومستنكراً في الآن نفسه– من خلال الاستفهام الانكاري– عملية تطهير الأطهار، فكان الجناس الناقص هنا مزية فنية رائعة أفاد منها الشاعر في اضفاء معنى جميل على بيته خصوصاً ، وقصيدته عموماً:

وأضـاءَ مَجْـدُكَ بالحُـسَينِ ومَجْـدِهِ وكـذا الـسَّماءُ تُنِيرُهـا الأقمـارُ
قـد نـالَ أفـضَلَ مـا يُنـالُ وقَـدْرُهُ أعْلَـى ولَـوْ أنّ النُّجُـومَ نِثـارُ
وجَرَتْ بـهِ خَيلُ السُّرُورِ الى مدى فَـرَحٍ دُخـانُ النَّـدِّ فيـهِ غُبـارُ
وحَوَى صَغِيرَ السِّنِّ غاياتِ العُلى [كذا] وَصِـغارُ أبنـاءِ الكِـرامِ كِبـارُ
يُنْبِـي الفتـى قبـلَ الفِطـامِ بِفَـضْلِهِ ويُبـينُ عِتْـقُ الخَيْـلِ وهـيَ مِهـارُ
لـم تَلْحَـظِ الأبْـصارُ يَـومَ ظَهُـورِهِ إلّا كُؤُوسـاً لِلـسُّرُورِ تُـدارُ
فَغَـدَوتَ تَـشْرَعُ فـي حَـلالٍ مُـسْكِرٍ مـا كُـلُّ مـا طَـرَدَ الهُمُـومَ عُقـارُ
قَمَـرٌ يُـضِيءُ جَمَالُـهُ وكمالُـهُ حتّـى يُعِيـدَ اللَّيـلَ وَهْـوَ نَهـارُ
ومِـنَ العجائِـبِ أنْ تَـرُومَ لِمثلِـهِ طُهْـراً وكيـفَ يُطَهَّـرُ الأطهـارُ[٨٨]

وقد تُقَدَّم التهنئة من لدن بعض الشعراء في المناسبتين معاً، أعني مناسبة ولادة المولود ومناسبة ختانه في الوقت نفسه، كما فعل أبو علي البصير في تهنئته لشخص يعتقد محقق شعره أنّه من أهل البيت (عليهم السلام)، لأنّ في القصيدة بيتاً يشير فيه الشاعر بطهارة المهنأ في الذكر الى قوله تعالى : ﴿ إنّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهْلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيرا﴾ [٨٩] ، فهو (الشاعر) استبشر بسماع خبر المولود الجديد، ولا سيما أنّ اسمه (محمد) على اسم النبي (

عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام) ، وفرح أيضاً حينما سمع أنّه خُتِنَ في اسبوعه الأول، لذا قدم تهنئته الى والده ودعاله دعوات مخلصة بالعمر المديد والمستقبل الزاهر، فيقول في ذلك كله:

أتيتُـــكَ جَـــذْلانَ مُسْتَبْـــشِراً ... لِبُـــشراكَ لَمَّـــا أتـــاني الخَبَـــرْ
أتـــاني البـــشيرُ بـــأنْ قـــد رُزِقْـــتَ ... غُلامـــاً فـــأبهَجَنِي مـــا ذَكَـــرْ
وأنَّـــكَ، والرُّشْـــدُ فيمـــا فَعَلْـــ ... ـــتَ، أسْـــمَيتَهُ باســـمِ خيـــرِ البَـــشَرْ
وطهَّرتـــــهُ يـــــومَ أُســـــبوعِهِ ... ومِـــنْ قبـــلُ فـــي الـــذِّكْرِ ماقـــد طَهُـــرْ
فَعَمَّـــــرَكَ اللهُ حتّـــــى تَـــــرا ... هُ قـــدْ قَـــارَبَ الخَطْـــوَ مِنـــهُ الكِبَـــرْ
وحتـــى تـــرى حَولَـــهُ مـــن بَنِيـــهِ ... وأخوتـــــــهِ وَبِنِـــــــيهِم زُمَـــــرْ
وحتـــى يَـــرُومَ الأُمُـــورَ الجِـــسامَ ... ويُرجـــى لِنَفْـــعٍ ويُخْـــشى لِـــضُرّ
وأوزَعَـــكَ اللهُ شُـــكْرَ العَطَـــاءِ ... فـــإنّ المزيـــدَ لِعَبْـــدٍ شَـــكَرْ
وصـــلّى علـــى الـــسَّلَفِ الـــصَّالِحِي ... ـــنَ مـــنكمْ وبـــاركَ فـــيمنْ غَبَـــرْ (٩٠)

كا ذُكِرَ الأطفالُ في مجالات شعرية أُخر غير التي تحدّثنا عنها، منها على سبيل المثال ما جاء في غرض المديح، إذ استثمر بعض الشعراء العباسيين الأطفال، بوصفهم أسلوباً جديداً في المديح، فبدءوا الإشادة بممدوحيهم من خلال الطفولة، فأبو تمام حين مدح الخليفة المأمون ادعى أنّ الخليفة تكفّل رعاية الأطفال الأيتام عن آبائهم، لذا نرى أنّه يتمنى أن يكون واحداً منهم؛ ليحظى برعايته، في اشارة صريحة ربما لطلب الأموال على مدحته، يقول:

مَـــنْ لا يُحِـــيط الواصـــفونَ بَقْـــدرِهِ ... حتّـــــى يقُولُـــــوا قَـــــدْرُه إلهـــــامُ
مَـــنْ شـــرَّدَ الإعـــدامَ عـــن أوطانِـــهِ ... بالبـــذلِ حتّـــى اســـتُطرِفَ الإعـــدامُ
وتكَفَّـــلَ الأيتـــامَ عـــن آبـــائهِمْ ... حتّـــــى وَدِدْنـــــا أنّنـــــا أيتـــــامُ (٩١)

أمّا التهامي ، فانه حين يمدح قوماً نراه يستثمر أطفالهم ويدّعي أنّ النجابة فيهم تكون واضحة منذ صغرهم في السنّ، كما هو الشأن في المهور الأصيلة، إذ يقول:

تُـــذكِّرُ أعـــوادُ المنـــابرِ جـــدَّه ... وآبـــاءه والأمـــرُ يُـــذْكَرُ بـــالأمرِ
فلـــو انّ أعـــوادَ المنـــابرِ أنـــصفت ... لمـــا نُـــصِبَتْ يومـــاً لغيـــر بنـــي الطّهـــرِ
تبـــيّن فـــي الطفـــل النجابـــةُ مـــنهم ... كما يستبينُ العتق والسبق في المهرِ(٩٢)

وفيما يتعلق بالممدوح نفسه، فانه– من وجهة نظر الشاعر – خاض غمار الحروب قبل أنْ تنبت أسنانه، والأكثر من ذلك أنّه قاد الجيوش قبل بلوغه سِنَّ الاحتلام:

فتـــى لقـــيَ الـــوغى قبـــل اثغـــارٍ ... وقـــادَ جيوشـــها قبـــل احـــتلامِ(٩٣)

ولا شكَ في أنّ هذا النوع من المديح غير محبب الى المتلقي، لأنه يعتمد المبالغة الشديدة في كيل الصفات غير المنطقية من الناحية الواقعية الى الممدوح، وهذا ما انتشر في أواخر العصر العباسي بكثرة ، فضلاً عن وجوده سابقاً.

ومن المؤكّد لنا أنّ غاية الشعراء في كسب الأموال– من خلال مثل تلك المدائح – كانت السبب الرئيس في اضفاء المبالغات الكبيرة على الممدوحين، حتى أنّ بعضهم ادعى أنّ الغلام من قوم ممدوحه يُصبح سيِّداً قبل بلوغه ، وغير ذلك من الصفات الأُخر التي لايرتضيها المنطق، ولا يقبلها العقل، من مثل قول التهامي نفسه:

نمتهُ الى أعلى المراتب عُصْبةٌ — يسوَّد من قبل البلوغِ غُلامُها
هي الأسد إلّا أنّها تبذُلُ القِرى — لطارقها والأسد يُحْمى طعامُها
إذا ما استهلَّ الطفلُ منهم تهلَّلَتْ — وجوهُ المعالي واستهَلَّ ركامُها
وإنْ فَطَمُوا أطفالهم بعد بُرهةٍ — فعن دَرِّها لاعن عُلاها فطامُها(٩٤)

كما أنّ الطفل في قوم الممدوح حين يقول قولاً فانه يفعله من دون تردّد، وليس ذلك فحسب، وإنّما نراه يُلاقي مايُلاقيه الرجال من غير تخاذل، وذلك يدلّ على قوة القوم وشدّة بأسهم عند الشاعر:

أنبت الدَّهرُ غلاماً منهمُ — عاقلَ الجُودِ إذا قال فعلْ
ألمعيّاً لايُبالي عزّةً — وهو طفلٌ أيَّ عُمريه اكتملْ
أُدرجَتْ في القُمْطِ منه راحةٌ — موضعُ الأقلام منها للأسلْ(٩٥)

وتتكرر فكرة حيازة الممدوح للمعالي منذ نعومة أظفاره في الشعر العباسي كثيراً،إذ وجد الشعراء أنّ هذه الصورة جميلة ويرتضيها الممدوح فكرّروها كثيراً في مدائحهم، وهم يعدّون الممدوح في تلك الصفة من دون منافس، وكأنهم يعترفون باستحالة ما نسبوه له في بواطن عقولهم، ومن ذلك قول ابن أبي حصينة:

نفيسٌ حَوَى العَلْياءَ طِفلاً ويافعاً — فَلَيسَ لَهُ في العالَمينَ منافِسُ(٩٦)

ولم يقتصر اضفاء هذه الصفة على الممدوح فحسب، بل قد يُرثَى بها المرثي أيضاً، كما فعل الخريمي حين رثى بعضهم بحيازته للمكارم في طفولته، واشعاله زند المعالي في صباه ، قائلاً:

فتى حازَ المكارمَ وهو طفلٌ — وأورى يافعاً زند المعالي (٩٧)

وأفاد بعض الشعراء من أطفالهم في كسب الأموال من خلال ذكر حالهم التي يُرثَى لها امام الممدوح، وفي الوقت نفسه أفادوا منهم للاستعطاف والاعتذار كما سنرى.

ولعلّ من أبرز النصوص الشعرية التي تتضمن التكسب الصريح من خلال الأطفال ما قاله الشاعر أبو الشمقمق في سؤال الخبز لأولاده الجائعين:

مـــا جمـــعَ النـــاسُ لِـــدُنياهُمُ ... أنفـــعَ فـــي البيـــتِ مِـــنَ الخُبْـــزِ
والخبـــزُ بـــاللَّحْمِ إذ نِلْتَـــهُ ... فأنـــتَ فـــي أمْـــنٍ مِـــنَ التَّـــرْزِ
والقلـــزُ مـــن بعـــدُ علـــى إثـــرهِ ... فإنّمـــا اللَّـــذَّاتُ فـــي القَلْـــزِ
وقـــد دنـــا الفطـــرُ وصـــبيانُنا ... ليـــسوا بـــذي تَمْـــرٍ ولا أرزِ
وذاكَ أنّ الـــدَّهرَ عـــاداهُمُ ... عـــداوةَ الـــشاهِين لِلْـــوَزِّ
فلـــو رأوا خُبْـــزاً علـــى شـــاهِقٍ ... لأسْـــرَعوا للخبـــزِ بـــالجَمْزِ
ولـــو أطـــاقوا القفـــزَ مـــا فـــاتَهُمْ ... وكيـــف لِلجـــائِعِ بـــالقَفْزِ[٩٨]

أنّ أبا الشمقمق هنا– كعادته– يستخدم اسلوب السخرية المريرة لوضع أطفاله الجائعين، مصوّراً حالهم تلك تصويراً متحركاً مثيراً للضحك والشفقة في الوقت نفسه، وما ذاك كلّه إلّا ليتوصّل الى غايته في استحصال الأموال لاعالتهم.

ويصل الأمر في استغلال الأطفال للحصول على الأموال لدى بعض الشعراء الى مستوى الاستجداء الصريح، وإهدار ماء الوجه، من خلال العبارات التي يشحنها الشاعر في أبياته التي يوجهها الى الممدوح المقصود، فبما أنّ بحر الممدوح فياض دوماً فلا شَكَّ في سرعة استجابته لطلب الشاعر، بوصف تلك الاستجابة انقاذاً لمعاناة أطفاله عموماً، ومعاناته هو على وجه الخصوص:

أنِعـــمْ عَلَـــيَّ بهـــا لِعَـــشْرَةِ صِـــبْيَةٍ ... هِبَـــةً فأنـــتَ المُـــنْعِمُ الوَهَّـــابُ
فهـــم عَبِيـــدُكَ لا أخـــافُ عَلَـــيْهِمُ ... ظَمَـــأً وَبَحْـــرُكَ زاخِـــرٌ عَبَّـــابُ[٩٩]

ويخاطب ابن الهباريّة شخصية الممدوح بأنّه قد أمَّلَ أطفاله بالخير الوفير منها حين تركهم وجاءه مادحاً ، لذا نراه يطلب الفضل من تلك الشخصية من دون استحياء أو حفظ لكرامته ، قائلاً:

فارقـــتُ أطفـــالي وقـــد مَنَّيْـــتُهم ... ووعَـــدْتُهُم بـــالخير مـــن جَـــدواكِ
فَتَعَطّفـــي فـــضلاً علـــيهم وارحمـــي ... بُهْمَـــا ســـماؤُهُم الـــسكوبُ يـــداكِ
فَهُـمُ كُزغـبِ الطيـرِ فـي أعـشاشِها ... خُمْـصُ الحواصِـلِ ينظـرونَ نَـدَاكِ[١٠٠]

وقد يعتذر بعض الشعراء من الممدوح بوساطة أطفالهم، وذلك عن ذنب اقترفوه، وفي هذه الحال يأتي ذكر الأطفال لا للتكسب بقدر ما هو في طلب الاعتذار ومحاولة كسب عطف الممدوح المُعْتَذَر منه، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ لأحد الأمراء:

هَبْنـــا جَنَينـــا ذُنوبـــاً ، لا يكفّـــرُها ... عُذْرٌ، فمـاذا جَنـى الأطفـالُ والحُـرُمُ [١٠١]

وبما ان الاطفال لا ذنب لهم فيما ارتكبه أبوهم من التقصير، يطلب الشاعر من ممدوحه أنْ يرحم ضعفهم وحاجتهم لأبيهم كيلا يذرفوا الدموع لبعده عنهم فيما لو عاقبه الممدوح بالنفي :

وارحَم ضعافاً وإطفالاً إذا ذكروا ... بُعدي عَصتَهم، ففاضت أدمُعٌ ذُرُفُ

لهم نَشِيجٌ وإعوالٌ إذا نظَرُوا ... من حالِهم غَير ما اعتادوا وما أَلِفوا

فنظرةٌ منك تُحييهم ، وتجعلُهم ... محمولةً عنهم الاثقالُ والكُلَفُ (١٠٢)

واذا كان بعض الشعراء تكسبوا بأطفالهم ، فان بعضهم الآخر بالغ في الاشفاق عليهم، إذ خافوا عليهم اليتم، لانهم رُزِقُوا بهم في مراحل متأخرة من حياتهم، فكانت نظراتهم الى أطفالهم نظرات كلها عطف وشفقة بسبب خوفهم من الموت الذي إن طالهم فانهم سيتركون أطفالهم الصغار في هذه الحياة، فالشاعر يفرح بولادة ابنه عن كِبَر، ولكنه في الوقت نفسه يبدأ بالتفكير بمصير هذا الولد بعد موته، ولاسيما أنه يتمنى أنْ يراه شاباً يافعاً، ولكن قناعته بعدم وصوله الى ذلك اليوم تجعله يقول :

هذا الصغيرُ الذي وافى على كِبرِي ... أَقَرَّ عَيني ولكنْ زادَ في فِكَري

وافى وقد أبقتِ الأيّامُ في جَسَدي ... ثلماً كَثَلْمِ الليالي دارة القَمَرِ

والشيبُ أردفَ مسوَّداً بمشتعِلٍ ... والدَّهرُ أعقبَ منصاتاً بمنأطِرِ

سَبْعٌ وخمسونَ لو مرَّتْ على حَجَرٍ ... لبانَ تأثيرُها في صفحةِ الحَجَرِ

فزادَ حرصي على الدُّنيا وجدَّدَ لي ... ضَناً بمالي واشفاقاً على عُمُري

أحنو عليه وأخشَى أنْ يُعاجِلَني ... يومي ولم يُقْضَ من ترشيحِهِ وطَري

وأشتهي أن اراهُ وهو مقتبلٌ ... غضَّ الشَّبابِ خضيب الوجه بالشَّعَرِ

أحيَى مآثِرَ آبائي وأشبَهَهُمْ ... في مجدهِمْ واقتفَى في هَدْيهمْ أثري (١٠٣)

ولكن حال الذكر حينما يُصبح يتيماً أفضل كثيراً من حال الأنثى التي تتيتم بعد موت اهلها؛ لانها ضعيفة لا تتمكن من حمل أعباء الحياة كما يتمكن هو، لذا كان الهم الذي يساور الأب في حال موته أشدّ من همِّ الأب الآخر ، الى الدرجة التي تغشاه الهموم فيها بسبب كثرة تفكيره بمصيرها من بعد موته :

أفكِّرُ في فُرَيَّةَ ما تلاقي ... من الدنيا فتغشاني الهمومُ

وتَصعَدُ زفرتي أسفاً، لعلمي ... بما يَلقى من البؤسِ اليتيمُ

وقد أودعتُهما ربًّا كريماً ... وما يَنْسَى وديعَته الكريمُ (١٠٤)

وكذا الحال في موت الأم وترك الطفل مع ابيه يعاني ما يعاني بعد فقدها ، ممّا يثير حزن الأب بسبب ما يراه ويحسّه من الألم الذي ينتاب طفله الصغير، فيصور ذلك تصويراً يبعث

الأسى في القلوب، ويجعل المتلقين يعانون ما يعانيه هو، وأصدق مثال على تصوير حال الطفل بعد وفاة أمه قول الزيات :

أَلَا مَـن رأى الطِّفـلَ المفـارِقَ أمَّـهُ بُعَيـدَ الكـرى، عينـاهُ تنـسكبانِ
راى كُـلَّ أمٍّ وابنهـا غيـر أُمِّـهِ يبيتـانِ تحـت اللّيـلِ ينتجيـانِ
وبـات وحيـداً فـي الفـراشِ تُجنُّـهُ بلابـلُ قلـبٍ دائـم الخفقـانِ
[.....]
فَهَبْنـي عَزَمْـتُ الـصَّبْرَ عنهـا لاننـي جَليـدٌ فمَـن بالـصَّبرِ لابـنِ ثَمـانِ
ضعيفُ القُوى لا يطلب الأجْرَ حِسْبَةً ولا يأتـسي بالنـاسِ فـي الحَـدَثانِ (١٠٥)

وصاغ بعض الشعراء حكماً تربوية نادرة في أسلوبها، كان أساسها موضوع الأطفال ، وكان بعضهم يؤكد قوله بالدليل الواقعي والمنطقي الذي يعتمد الجدل والمحاججة للتوصل الى القناعة التامة لدى المتلقي، كما فعل صالح بن عبد القدوس حين أكّد أنّ الأدب ينفع الأطفال في الصغر، لأنهم إذا تقدموا في أعمارهم قد لا ينفعهم النفع المرجو منه ، ودليله في صحة زعمه هو تقويم الغصون المعوجة في نعومتها عند بداية نموّها، في حين لا نتمكن من تقويم الخشب لأنه تيبس ولم تعد عملية التقويم مجدية معه :

قـد ينفـعُ الأدبُ الأطفـالَ فـي صـغرٍ ولـيس يَنفـعُ بعـد الكبـرةِ الأدبُ
إنّ الغُـصُونَ إذا قوّمتهـا اعتـدلتْ ولايلـينُ إذا قوّمتـه الخَـشَبُ(١٠٦)

أما أبو العلاء المعري، فانه يطلب الرفق في التعامل مع الأطفال، لأنهم سيتذكرون المعاملة الحسنة عندما يكبرون، فاذا ما تحقق مرام الشاعر ، فانّ أولئك الأطفال سيكونون رجالاً متكاملين من حيث الصفات الايجابية، على العكس تماماً من الأطفال الذين يواجهون القسوة من لدن الأهل في حياتهم:

ورفقـاً بالأصـاغرِ كـي يقولـوا غـدونا بالجميـل مُعاملينـا
فأطفـالُ الأكـابر إنْ يُوقُّـوا يُـرَوا يومـاً رجـالاً كاملينـا(١٠٧)

في حين يصدر ابن الرومي نظرية فلسفية خاصة به، لما عُرِفَ عنه من التشاؤم الذي أحاط حياته به، أَلَا وهي بكاء الطفل حين ولادته مباشرة، إذ يعدّ الشاعر ذلك البكاء بسبب معرفة الطفل بشرور الحياة فيستبقها بالبكاء، ودليله في ذلك هو أنّ الدنيا التي حلَّ بها أوسع من المكان الذي كان فيه قبل ولادته، اذن بكاؤه كان للسبب الذي رآه الشاعر ولاشيء غيره، يقول:

لمـا تُـؤْذن الـدنيا بـه مـن شُـرورها يكـونُ بكـاءُ الطفـلِ سـاعة يُوُضَـعُ
وإلّا فمـا يُبكيـه منهـا وإنهـا لأفـسحُ ممـا كـان فيـه وأوسـعُ
إذا أبـصرَ الـدنيا اسـتَهَلَّ كأنّـه يـرى مـا سـيلقى مـن أذاهـا ويـسمعُ(١٠٨)

ولعلّ من أطرف الأمور التي ذُكِرَ فيها الأطفال في قصائد الشعراء العباسيين هو ذكرهم في مواطن الفخر، إذ افتخر بعض الشعراء بالأطفال خاصتهم، من مثل قول البحتري الذي يفتخر بوطنه مُدَّعِياً أنّه يُنبتُ المعالي التي من ضمنها طبعاً سيادة الطفل منهم قبل نموِّ اسنانه، وذلك في قوله:

بَلَــدٌ يُنبِــتُ المعــالي فمــا يَثــ ــغرُ الطِّفْــلُ فيــهِ حتّــى يَــسُودا(١٠٩)

ويفتخر الصاحب بن عباد بسبطه حين فُطِمَ عن الرضاعة ، قائلاً : إنّه فُطِمَ عن رضاعة الحليب، ولم يُفْطَمْ عن رضاعة المكارم، في إشارة الى شرف اصله ونسبه:

فُطِمْــتَ أيــا عَبّــادُ يــا ابــنَ الفــواطِمِ فقــال لــكَ الــساداتُ مِــن آلِ هاشِــم:
لــئن فطمــوهُ عــن رضــاع لبانِــهِ فمــا فطمــوهُ عــن رضــاع المكــارِمِ(١١٠)

وكان الصراع دائراً منذ زمن الجاهلية الى يومنا هذا فيما يخصّ مسألة ولادة الذكر والأنثى، وكان العصر العباسي شهد مثل هذا الصراع من لدن الناس الذين لم يكونوا مسرورين بولادة الأنثى، ولا يفرحون بها بمقدار فرحهم بالذكر، ولهذا السبب نلاحظ أنّ أحد الشعراء انبرى لهذه القضية المعقدة ، وحاجج الذين يُصابُونَ بالتعاسة لمجرد سماعهم خبر ولادة الأنثى ، وما حجته في ذلك إلّا الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، فهو أبو البنات ، ولم يجزع منهن ، فلمَ يجزع الآخرون؟!

وفضلاً عمّا ذكره الشاعر من الحجة الدامغة ، فانه يرى-أيضاً- أنّ كثيراً من الناس نالوا كبت أعدائهم بوساطة بناتهم ، وذلك حين قال:

قــالوا لــه : مــاذا رُزِقْنــا؟ فأصــاخ، ثمّــة قــال : بنتــا
وأجــلُّ مــن ولــد النــسا ء أبــو البنــات فلــم جزعتــا؟
إنَّ الــذين تــودّ مــن بــين الخلائــقِ مــا اســتطعتا
نــالوا بفــضل البنــت مــا كبتــوا بــه الأعــداءَ كبتــا(١١١)

وفي بعض الأحيان يمر الشاعر بلحظة من الصمت يتحدث فيها الى نفسه، ويتطرق الى طبيعة حياته ومسيرته في الدنيا ، متسائلاً ومحللاً لكثير من الأمور التي صادفته ، وشاكياً همومه التي واجهته، ومن بين ذلك كله يأتي ذكر الأطفال أيضاً في لحظة الصمت تلك، فهم جزء رئيس في حياة الناس كلهم، ولابدّ أنْ يأتي ذكرهم لأيّ سبب كان، لذا جاء الحديث عنهم في مقطوعة الشاعر منصور بن اسماعيل الفقيه في معرض مجموعة من التساؤلات الحياتية المهمة التي تتضح في قوله:

إذا قنعــتُ بقــوتٍ ولــبسِ ثَــوبٍ مُرقَّــعْ
ولــم يكــن لــي عيــالٌ نفــسي لهــم تَتَفَجَّــعْ

ولابنُـــــــــونَ صِـــــــغارٌ قلبـــــــي لهـــــــم يَتَقَطَّــــــعْ
ولا صـــــــــديقٌ مُـــــــصافٍ فراقُـــــــــــهُ أتوقَّـــــــــعْ
وقـــــد عزفـــــتُ عـــــن العُهْـــــــــرِ والغنــــــى والتَّمَتُّـــــعْ
وكــــــان للّـــــــهِ نُـــــــسْكِي فمــــــابيَ الــــدهرُ يَــــصْنَعْ[١١٢]

وكانت واقعة الطفّ– بكلّ ما تحمله من دلالات وعِبَر– محطّ أنظار الشعراء على مَرّ العصور الأدبية، لأنّ ما جرى فيها لم يكن أمراً اعتيادياً من الممكن تكراره في أيِّ عصر آخر، فَمَنْ استُشْهِدَ فيها لم يكن شخصاً كأيّ شخص، بل كان سبط النبي محمد (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، والذين استشهدوا معه كانوا من بيت النبوة، لذا فقد انبرى الشاعر مهيار الديلمي لتصوير تلك الواقعة في احدى قصائده، متحدثاً عن وحشية مَنْ يدعون أنفسهم بالمسلمين، وكيف أنهم حرَّموا شرب الماء على آل البيت (عليهم السلام)، فلم ينجُ الكهولُ من ظلمهم ووحشيتهم ولا الشباب ولا حتى الأطفال، ذلك كله صوّره الشاعر في قوله:

وشــــهيدٍ بـــالطَّفِّ أبكـــى الـــسموا تِ وكــــادت لــــه تـــزولُ الجبــــالُ
يـــاغليلي لـــه وقـــد حُـــرِّمَ المـــا ءُ علـــيهم وهـــو الـــشرابُ الحـــلالُ
قُطِعَــتْ وُصــلة (النبــيِّ) بــأن تُقــ ــطَعَ مِـــن آلِ بيتِــــهِ الأوصــــالُ
لــم تُــنَجِّ الكهــولَ سِــنٌّ ولا الــشبْ بَــانَ زهــدٌ ولا نَجــا الأطفــالُ[١١٣]

إنّ ذكر استشهاد الأطفال في القصيدة هذه لم يكن إلّا دليلاً مفحماً يوضّح همجيّة المسؤولين عن تلك الفاجعة التي طالت أيديهم فيها على ابن بنت نبيهم، فلم يراعوا حرمتها ولا حرمة أبيها، لذا ذبحوا حتّى الأطفال الأبرياء الذين لم يدركوا شيئاً بعد .

وقبل اختتام الحديث عن المواضع التي ورد فيها ذكر الأطفال في الشعر العباسي، نقول : إنّه قد يرد ذكرهم لدى بعض الشعراء للمبالغة في بيان حجم الهموم التي تنالهم ، كما حصل مع أسامة بن منقذ الذي رأى أنّه يعيش في زمن يشيب فيه رأس الجنين ،ويشيخ المولود حديثاً، وذلك بسبب قساوة الزمن من وجهة نظره، يقول :

أصـــبحتُ فـــي زَمَـــنٍ يـــشيبُ لجَـــوْرِهِ فَـــودُ الجَنـــينِ، ويَهْـــرَمُ المولُـــودُ[١١٤]

تبيّن لنا– من خلال الدراسة هذه – أنّ ذكر الأطفال في الشعر العباسي لم يكن مقتصراً على رثائهم من لدن آبائهم الشعراء فحسب، كما هو معروف ، بل تعددت المواطن التي تناولت الطفولة موضوعاً لها، أو التي أفادت من الطفولة في معرض حديثها عن مواضيع أُخر كما رأينا، والتي نأمل أنْ نكون قد وُفِّقْنا في رصد مظاهرها، والكلام على مضامينها.

الهوامش

١- ينظر: رثاء الابناء في الشعر العربي /١٩-٢٤.
٢- العقد الفريد ٢٥٨/٣.
٣- ديوان بشار بن برد ٢٧٩/١.
٤- م.ن ٢٧٩/١.
٥- محمد بن كناسة الاسدي، حياته ،شعره ، نصوص باقية من كتابه : الأنواء / ٣١٣، يفيل : يخطئ.
٦- ديوان ابن الرومي ٢/ ٦٢٦.
٧- ديوان التهامي / ٤٧٨، وتنظر : ٤٩٠.
٨- ديوان أسامة بن منقذ/٣٠٤، وتنظر : ٢٩٨، ٣٠٣.
٩- ديوان بشار بن برد ٢٧٩/١، الإرنان: الصياح.
١٠- ديوان ابن الرومي ٦٢٥/٢.
١١- م.ن ٦٢٦/٢.
١٢- م. ن ٦٢٦/٢-٦٢٧.
١٣- ديوان التهامي / ٤٦٩.
١٤- م.ن / ٤٨١-٤٨٢.
١٥- م. ن/٤٨٤.
١٦- ديوان اسامة بن منقذ / ٢٩٧.
١٧- م.ن / ٣٠٣.
١٨- م.ن / ٣٠٣.
١٩- ديوان بشار بن برد ٢٧٩/١.
٢٠- ديوان ابن الرومي ٦٢٥/٢.
٢١- ديوان التهامي / ٤٦٧.
٢٢- م.ن / ٤٦٧، السرار : آخر ليلة من الشهر يستسر فيها القمر، أي يختفي .
٢٣- م.ن / ٤٧٨-٤٧٩،أبلج : طلق الوجه، غرّة الشهر : أوّله.
٢٤- م.ن/ ٤٨٠ – ٤٨١، نضا الثوب: نزعه وخلعه، ونسل الريش : سقط ، اللؤام: القذذ الممتلئة، وهي التي تلي بطن القذة منها ظهر الأخرى، وهو أجود ما يكون، أفاويق: جمع فيق، كعنب ، وفيق: مع فيقة بكسر الفاء: اسم اللبن يجتمع بين الضرع بين الحلبتين، والأفاويق أيضاً : ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعة بعد

ساعة، أثغر: نبت ثغره، والثغر: مقوم الأسنان، الظلم: بالفتح : ماء الأسنان وبريقها وهو شبه سواد يتراءى داخل عظم السن من شدّة بياضه.

٢٥- ديوان أسامة بن منقذ/ ١٩٥.

٢٦- م.ن / ٢٩٨.

٢٧- ديوان بشار بن برد ٢٧٩/١.

٢٨- ديوان ابن الرومي ٢٤٤/١.

٢٩- م.ن ٦٢٦/٢.

٣٠- ديوان التهامي / ٤٦٨.

٣١- م.ن / ٤٦٩، وينظر : ديوان أسامة بن منقذ/ ٣٠٠ .

٣٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١٥٤/٢.

٣٣- ينظر: الشعر والشعراء في العصر العباسي / ٦٧٨.

٣٤- ينظر : رثاء الأبناء في الشعر العربي / ٣٨-٣٩.

٣٥- ديوان بشار بن برد ١/ ٢٧٩.

٣٦- ديوان ابن الرومي ٢/ ٦٢٤-٦٢٥.

٣٧- ديوان التهامي / ٤٨٢، البيض: واحدته بيضة ، وهي من آلات الحرب لوقاية الرأس.

٣٨- م.ن / ٤٩٠.

٣٩- ديوان بشار بن برد ١/ ٢٧٩.

٤٠- ديوان ابن الرومي ٦٢٤/٢.

٤١- م.ن ٢ / ٦٢٥.

٤٢- ديوان اسامة بن منقذ / ١٩٥.

٤٣- م.ن / ٣٠٠.

٤٤- ديوان ابن الرومي ٢/ ٦٢٥.

٤٥- رثاء الأبناء في الشعر العربي / ٤٦.

٤٦- ديوان ابن الرومي ٦٢٦/٢.

٤٧-ديوان التهامي / ٤٧٩.

٤٨- ديوان اسامة بن منقذ / ٢٩٧.

٤٩- م.ن / ٣٠٤.

٥٠- ديوان ابن الرومي ٢/ ٦٢٤.

٥١- م. ن ٢/ ٦٢٧.

٥٢- ديوان التهامي / ٤٦٨.
٥٣- م.ن / ٤٧٨.
٥٤- ديوان أسامة بن منقذ / ١٩٥.
٥٥- م.ن / ٢٩٧.
٥٦- ديوان بشار بن برد ١/ ٢٧٩.
٥٧- ديوان التهامي / ٤٦٨.
٥٨- م. ن/ ٤٨٦.
٥٩- ديوان أسامة بن منقذ / ٢٩٧.
٦٠- ديوان بشار بن برد ١/ ٢٧٩.
٦١- ديوان التهامي / ٤٨١ .
٦٢- ديوان أسامة بن منقذ / ٢٩٧، وتنظر : ٣٠٣ ، ٣٠٤.
٦٣- ديوان التهامي / ٤٦٩.
٦٤- م.ن / ٤٨٢.
٦٥- ديوان بشار بن برد ٢٨٠/١.
٦٦- ديوان ابراهيم بن العباس الصولي / ١٧٥.
٦٧- ديوان التهامي / ٤٦٨.
٦٨- م.ن / ٤٨٦.
٦٩- ديوان أسامة بن منقذ / ٣٠٣.
٧٠- م.ن / ٣٠٤ .
٧١- ديوان بشار بن برد ٣٥/٤-٣٦، بتّا: أي قَطْعاً، والبهت: مصدر بهت اذا كذب.
٧٢- ديوان الصنوبري/ ١٠٠-١٠١.
٧٣- م.ن / ١٠٣.
٧٤- م.ن / ١٠٣.
٧٥- م.ن / ١٠٤.
٧٦- م.ن / ٢٦٤، الفضيض: المتفرق من قطرات الدم.
٧٧- م.ن / ٣٤٣.
٧٨- ديوان البحتري ١/ ٣٨٢، يشير محقق الديوان في هامش الصفحة نفسها الى أنّ هذا الحديث ليس صحيحاً ، وهو دائر على ألسنة الناس.
٧٩- م.ن ٢/ ١٠٠٣.

٨٠- ديوان الشريف الرضي ٢/ ٢١٨، المجلجل: المصوت ، الودق: المطر ، وينظر مثل ذلك : ١/ ١٥٧.

٨١- أبو العتاهية أشعاره وأخباره/ ٥٣١-٥٣٢.

٨٢- ديوان ابن الرومي ٢/ ٦٣٤.

٨٣- ديوان الصنوبري / ١١-١٢.

٨٤- ديوان الصاحب بن عباد / ٢٠٠.

٨٥- م. ن / ٢٠٠.

٨٦- ديوان الشريف الرضي ١/ ٤٦٦-٤٦٧.

٨٧- م.ن ١/ ٦١٣.

٨٨- ديوان ابن الخياط / ٨٩.

٨٩- الأحزاب / ٣٣.

٩٠- أبو علي البصير، حياته وشعره / ٢٥٧-٢٥٨، أوزعك : ألهمك .

٩١- ديوان أبي تمام ٣/ ١٥٣.

٩٢- ديوان التهامي / ٢٥٣.

٩٣- م.ن / ٣٦٣ .

٩٤- م.ن / ٣٧٩.

٩٥- ديوان مهيار الديلمي ٣/ ٧٤.

٩٦- ديوان ابن أبي حصينة ١/١٤٠، وينظر : ١/ ١٨٥.

٩٧- ديوان الخريمي / ٥٥.

٩٨- أبو الشمقمق وما تبقى من شعره / ١٤٠، التارز: اليابس الذي لا روح فيه ، القلز: ضرب من الشرب، الجمز: جمز الانسان والبعير والدابة يجمز جمزاً وجمزي: وهو عَدْوٌ دون الحُضْر الشديد وفوق العنق ينظر: لسان العرب / المواد: ترز ، قلز، جمز.

٩٩- ديوان ابن أبي حصينة ١/١٢١.

١٠٠-شعر ابن الهبارية / ١٦٦.

١٠١-ديوان أسامة بن منقذ / ١٤٧.

١٠٢-م.ن / ١٨٥.

١٠٣-ديوان الطغرائي / ١٦٣-١٦٤.

١٠٤-ديوان أسامة بن منقذ / ٢٧٣، وتنظر : ٢٧٤.

١٠٥-ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات / ٦٧.

١٠٦-صالح بن عبد القدوس البصري، عصره- حياته – شعره / ١٣٣.
١٠٧-اللزوميات ٢/ ٣٧٠.
١٠٨-ديوان ابن الرومي ٤/ ١٥٥١.
١٠٩-ديوان البحتري ١/ ٥٩٣.
١١٠-ديوان الصاحب بن عباد/٢٨٠.
١١١-ديوان علي بن محمد الحماني العلوي الكوفي/ ٢٠٢.
١١٢-منصور بن اسماعيل الفقيه حياته وشعره / ١٠٧.
١١٣-ديوان مهيار الديلمي ٣/ ١٧.
١١٤-ديوان أسامة بن منقذ / ٢٤٨.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم ، أغلى المصادر وأكرمها.
- أبو الشمقمق وما تبقى من شعره ، ضمن : شعراء عباسيون، دراسات ونصوص شعرية ، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها : الدكتور محمد يوسف نجم، راجعها : الدكتور إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت ، مطبعة عيتاني، ١٩٥٩.
- أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، عُني بتحقيقها: الدكتور شكري فيصل ، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تُنْشَر من قبل ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٥م.
- أبو علي البصير، حياته وشعره، ضمن : شعراء عباسيون، الدكتور يونس أحمد السامرائي، ج٢، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
- ديوان ابراهيم بن العباس الصولي، صنعة: ابن أخيه أبي بكر محمد بن يحيى الصولي الشطرنجيّ، نسخه وصحَّحه وخرّجه وعارضه: عبد العزيز الميمني، ضمن: الطرائف الأدبية ، عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٣٧.
- ديوان أسامة بن منقذ، حقّقه وقدّم له: الدكتور أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد ، عالم الكتب ، د.ت.
- ديوان ابن أبي حصينة، الأمير أبي الفتح الحسن بن عبد الله المشهور بابن أبي حصينة السّلميّ المعريّ، سمعه وشرحه: أبو العلاء المعري، حقّقه : محمد أسعد طلس، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م.

- ديوان ابن الخياط ، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي، رواية تلميذه: أبي عبد الله محمد بن نصر بن صغير الخالدي القيسراني، عُني بتحقيقه: خليل مردم بك، دار صادر ، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
- ديوان ابن الرومي ، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح، تحقيق: الدكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م، شارك في تحقيق الجزء الاول : د. سيدة حامد عبد العال، منير محمد المدني، وشارك في تحقيق الجزء الثاني : د. سيدة حامد، د. محمد عادل خلف، زينب القوصي، منير المدني، وشارك في تحقيق الجزء الرابع: وفاء محمود الأعصر، أحمد حسين علي صالح ، منير محمد المدني.
- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزّام، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.
- ديوان البحتري، عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي، دار المعارف– القاهرة، ج١، ط٢، د.ت، ج٢، ١٩٦٣.
- ديوان بشار بن برد ، تقديم وشرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور، د.ط، د.ت.
- ديوان التهامي، شرح وتحقيق: الدكتور علي نجيب عطوي، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت– لبنان ، ١٩٨٦.
- ديوان الخريمي، أبي يعقوب اسحاق بن حسان بن قوهي، جمعه وحققه: علي جواد الطاهر، محمد جبار المعيبد، دار الكتاب الجديد ، بيروت – لبنان، مطابع الأمان ، درعون – لبنان ، ط١، ١٩٧١.
- ديوان الشريف الرضي، دار صادر – بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، ١٣٨٠هـ – ١٩٦١م.
- ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم ، بيروت – لبنان ، مكتبة النهضة ، ط٢، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- ديوان الصنوبري ، أحمد بن محمد بن الحسن الضَّبي، (من حرف الراء حتى حرف القاف)، حققه: الدكتور إحسان عباس ، نشر وتوزيع : دار الثقافة ، بيروت– لبنان ، مطابع غريّب– بيروت، ١٩٧٠.
- ديوان الطغرائي، تحقيق: د. علي جواد الطاهر ، د. يحيى الجبوري، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، دار الحرية للطباعة– بغداد، ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.

- ديوان علي بن محمد الحماني العلوي الكوفي، صنعة: محمد حسين الأعرجي، مجلة المورد، مجلة تراثية فصلية تصدرها وزارة الاعلام – الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة – بغداد ، م٣، ع٢، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.
- ديوان مهيار الديلمي، منشورات الشريف الرضي، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط١، ١٣٤٩هـ- ١٩٣٠م.
- ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات، نشره وقدّم له : الدكتور جميل سعيد، مطبعة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٤٩ [تاريخ المقدمة].
- رثاء الابناء في الشعر العربي، د. مخيمر صالح موسى يحيى، مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، ط١، د.ت.
- شعر ابن الهباريّة، جمعه وحقّقَه: الدكتور محمد فائز سنكري طرابيشي، تقديم الدكتور محمد حمويّة، طبع في مطابع وزارة الثقافة ، احياء التراث العربي، دمشق، ١٩٩٧.
- الشعر والشعراء في العصر العباسي، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت،ط٢، ١٩٧٥.
- صالح بن عبد القدوس البصري، عصره- حياته- شعره، تأليف وجمع وتحقيق: عبد الله الخطيب، الناشر: دار منشورات البصري- بغداد،١٩٦٧م.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته ورتّب فهارسه: أحمد أمين، أحمد الزين، ابراهيم الابياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت – لبنان ، ط٤، ١٩٧٢.
- اللزوميات، لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، أبي العلاء المعري، حقّقه وأشرف على طباعته: جماعة من الأخصائيين، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ط٢، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.
- لسان العرب ، للامام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، دار صادر ، دار بيروت، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م.
- محمد بن كناسة الأسدي، حياته، شعره، نصوص باقية من كتابه: الأنواء، محمد قاسم مصطفى ، مجلة آداب الرافدين، تصدر عن كلية الآداب/ جامعة الموصل، ع٦، جمادى الاولى ١٣٩٥ – حزيران ١٩٧٥.

- منصور بن اسماعيل الفقيه حياته وشعره، الدكتور عبد المحسن فرّاج القحطاني، دار القلم، بيروت– لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ – ١٩٨١م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].